الفقيه المُجَـدِّد سماحة العلّامة المرجع
السيّد محمد حسين فضل الله (رضوان الله عليه)

مفاهيم إسلاميّة عامّة

- اليأس والأمل
- النقد والنقد الذاتي
- الانفعال

المركز الإسلامي الثقافي
مجمع الإمامين الحسنين(ع)

الطبعة الأولى
١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م

إصدار المركز الإسلامي الثقافي

لبنان ـ حارة حريك ـ مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام
هاتف: ٥٥٧٠٠٠/ ٠١ ـ ٥٤٤٤٠٢/ ٠١
خليوي: ٥٦٥٠٧٤/ ٠٣

❊ ❊ ❊

البريد الإلكتروني

info@tawasolonline.net
info@fadlullahlibrary.com

❊ ❊ ❊

المواقع الإلكترونية ـ المركز الإسلامي الثقافي

www.tawasolonline.net
www.fadlullahlibrary.com
youtube/tawasolonline

Facebook:

مكتبة العلّامة المرجع السيّد فضل الله العامة
تواصل أون لاين

الفقيه المُجَـدِّد سماحة العلّامة المرجع
السيّد محمد حسين فضل الله

مفاهيم إسلاميّة عامّة

- اليأس والأمل
- النقد والنقد الذاتي
- الانفعال

1

المركز الإسلامي الثقافي
مجمع الإمامين الحسنين(ع)

المقدّمة

إنّها مفاهيمُ إسلاميّة، أرادها السيّد (رضوان الله عليه) أن تكون مدرسةً تتربّى فيها الأجيالُ على الخُلُق القويم، وتسير على جادة الصواب، من خلال ما تترجمه حركةً في حياتها، وتفاعلاً مع مبادئها، وإيماناً بنهجها...

إنّها المفاهيم الإسلاميّة التي يحصّنها القرآن بالقوّة، وتدعم السيرة الشريفة للنبيّ (ص) ولأهل بيته الأطهار (عليهم السلام) أسوارَها...

إنّها مفاهيمُ ثلاثة، من جملة مفاهيم إسلامية سننشرها تباعاً بإذن الله، وهذه المفاهيم تتناول: اليأس والأمل، النقد والنقد الذاتي، الانفعال...

وبخبرة العالِم، ونهج الذي عاش عصرَه وزمانَه وعرف مشاكلَه، يطرح السيّد (رضوان الله عليه) هذه المفاهيم لتنير الدربَ أمام الإنسان المسلم، ليعيش مفاهيمه الإسلاميّة رسالةً في الحياة، ومنهجاً يُوصله دوماً إلى نهايات الطريق بكلّ أمنٍ وسلامة...

وهذه المفاهيم مع غيرها من مفاهيم إسلامية أخرى، كان قد تناولها السيّد

في كتابه (مفاهيم إسلامية عامّة) الصادر عن دار الملاك في بيروت، ونحن إذ نُعيد نشرها فلأهميّتها في تحديد الاتّجاهات القويمة والطرق السليمة التي ينبغي للمسلم أن يسير عليها...

والله الموفّق

مدير المركز الإسلامي الثقافي
شفيق محمد الموسوي
ربيع الأول ١٤٣٤هـ
شباط ٢٠١٣م

اليأس والأمل

اليأس والأمل في مفهوم الإسلام

الحديث عن اليأس في حياة الإنسان، حديث عن حالة عميقة الجذور في كيانه، صعبة المعالجة في تعقيداتها المتشابكة وانفعالاتها المجنونة الهائجة.

ولذلك لا يُعتبر هذا الحديث ترفاً عقلياً يراد به الأخذ بالأفكار التي تبتعد عن واقع الإنسان وتقترب من خيالاته.

بل هو حاجة ملحّة على مستوى الفرد والمجتمع والأمّة كلّها، في الجوانب الخاصة الشخصيّة من مطامح الإنسان، أو في المجالات العامة حيث الدين والفكر والسياسة والاقتصاد والاجتماع في حالة السِّلم والحرب.

أمّا التركيز في الحديث على موقف الإسلام من اليأس والأمل، فلأنّنا نحاول الانطلاق في حياتنا على أساس النظرة الإسلامية للحياة، ليكون موقف الإنسان المسلم من واقعه منسجماً مع الخطِّ الإسلامي الأصيل في النظريّة، لِئَلّا يعاني من ازدواجيّة الشخصيّة حين يحاول أن يوجّه حياته في غير وجهة الإسلام فيما يواجهه من مشاكل، وفيما ينتابه من نوازع، أو يهزّه من أزمات.

اليأس في طريق الانتحار

يمثّل اليأس، الثورة النفسيّة على الحياة من جانبها السلبيّ عندما يطغى على وجدان الفرد وتفكيره، فيشعر أنّ الحياة تختنق في داخله لتتحوّل إلى سجن مظلم

يعيش فيه، دون أن يجد منفذاً للنور أو متنفّساً للهواء.

فيتمرّد على الحياة عندما يشعر أَنّها عادت عبئاً ثقيلاً يحمله، ومصدراً دائماً للألم والدموع.

وقد ينتحر عقله في بعض الحالات إزاء شدّة الأزمة وهَوْلِ الصّدمة.. وربّما تنتحر حياته بيده، في أكثر الحالات، برصاصة أو خنجر، أو سمّ يشربه، أو صدمة عنيفة تدمّر جسمه عندما يُلقي نفسه من علوّ شاهق في البرّ أو البحر.

وقد نلمح الكثير من الأمثلة على ذلك في حوادث الانتحار العديدة، في عصرنا لدى جميع الأمم. مع اختلاف الأنظمة والثقافات، وتنوّع المستويات الاجتماعيّة.. فنجد الإنسان الذي يشعر باليأس الخانق، أمام الإخفاق في مشكلة غرامية خاصّة تمثّل عنده المتنفّس الوحيد للأمل بالحياة، ووضع عائليّ معيّن، أو حالة مزاجيّة خاصّة في إطار البيت أو الرفاق، الأمر الذي يجعله يفقد معنى الحياة معها إزاء الفشل.

وتكثر هذه النماذج لدى الشباب، الذين يمرّون بفترة المراهقة، من الفتيان والفتيات، فهم يستسلمون لليأس لدى أوّل بادرة للفشل، دون أن يتركوا للحياة الفرصة في تأكيد وجودها في ذواتهم بقوّة، فيسلمهم اليأس للانتحار. ولعلّ ركن المشاكل العاطفية، أو مشاكل القلوب في الصحف المعاصرة تستطيع أن تعطيَنا صورة حيّة للحالة النفسيّة اليائسة التي يعيش فيها هؤلاء الشباب أمام بوادر الفشل.

وهكذا تمتدّ الأسباب الشخصيّة التي تدفع الذين ينتحرون أمام نوازع اليأس من وجود الجديد الذي يُغريهم بالحياة ويبرّر لهم الاستمرار معها حتى النهاية.

وتتنوّع الأسباب لتصل إلى اليأس من حالة سياسيّة أو دينيّة معيّنة عندما يصطدم بعض الأشخاص بواقع سياسيّ أو دينيّ لا يملكون له تغييراً من خلال واقعهم الخاص وطاقاتهم المحدودة، فلا يجدون معه متنفّساً للحياة، ويتعاظم

اليأس في نفوسهم حتى يؤدّي بهم إلى الانتحار تخلّصاً من هذا الواقع في بعض الحالات أو محاولة لإثارة الآخرين ضدّ هذا الواقع من خلال الانتحار.

وهم في كلتا الحالتين، ينطلقون من حالة اليأس من التغيير بغير هذه الطريقة، وقد نجد المثل على ذلك في حالات الانتحار عند البوذيّين احتجاجاً على بعض الأوضاع السياسيّة. فهي وإن انطلقت من جذور دينيّة تجعل من الانتحار عملاً دينيّاً يتّصل بالحياة بعد الموت، لكنّها ـ في واقعها الأصيل ـ حالة يأس تجمع بين الفرار من الحياة، أملا في الراحة فيما بعد الموت.

وربّما نلمح اليأس في حالات الانتحار من خلال الآلام الشديدة التي يعانها المريض في مرضه، أو السجين في سجنه، أو الفقير في فقره.

وهكذا تتنوّع حالات اليأس الذي يدفع للانتحار تبعاً لتنوّع حالات الحياة لتجمع بين الفاشلين الذين ينتحرون أمام قمّة الفشل، وبين الناجحين الذين ينتحرون أمام قِمّة النجاح.. وهكذا تمتدّ لتشمل هؤلاء الذين يختنقون باليأس أمام اللّذة، وأولئك الذين يخنقهم اليأس من اللّذة.

ذلك هو بعض الحديث عن حالة اليأس وآثارها في الجوانب الشخصيّة لحياة الإنسان، الفرديّة في مستوى نزواته وشهواته، وآماله وآلامه، ومطامحه ونوازعه وهمومه وغمومه.

فماذا عن الجوانب العامّة لحياة الإنسان؟

وهل لليأس فيها دور؟

العاملون للحقّ أمام اليأس

ربّما نجد اليأس متمثّلاً في حياة العاملين من أجل المُثُل العليا، والقيم الكبيرة والمعاني السامية عندما يصطدمون بواقع الناس الذين لا يستجيبون لهم بسهولة

ولا يتجاوبون معهم بسرعة، بل يجدون أكثر من ذلك، تمرّداً وجحوداً وكفراناً.

وربّما يواجهون بعض التعذيب والتنكيل والاضطهاد أو السجن والتشريد فيسقطون ـ في بعض الأحيان ـ صرعى أمام الصدمة، ويخيّل لهم أنَّ القضية انتهت، وأنّ زمن القيم الكبيرة قد ولّى، وأنّ ظروف الحياة لا تشجّع على مواصلة السير من جديد.

فينكمشون ويتضاءلون، ويختنقون باليأس فيُوحون لأنفسهم ـ في عملية تبرير للهروب ـ أنّ الحياة قد تجاوزت أفكارهم، وأنّ الناس قد انقلبوا على أعقابهم، فليس هناك أمل في أن يسمعوا فضلاً عن أن يَعوا ويهتدوا.

وهكذا يسمحون للكفر والضلال والانحراف أن يمرّ ويعيش دون مقاومة، ويتركون للأفكار الضالّة والكافرة أن تنمو وتمتدّ دون صراع، بحُجّة أنّه لا جدوى من المقاومة، ولا فائدة من الصراع.

وعلى ضوء ذلك، نستطيع أن نقول: إنّ تاريخ المبادئ الكافرة والضالّة والمحرَّفة، في أكثر الحالات هو تاريخ العاملين اليائسين الذين يقابلون قوافل تلك المبادئ بالحسرات والدموع والالتفات إلى الماضي الزاهر بحنين سلبيّ لا يقترب من الحاضر إلا ليثير انفعالات الرثاء.

أساليب الأعداء في إثارة اليأس

وقد نلمح في أساليب الكفر والضلال بعض الخطوات العملية الذكيّة التي تعمل على أن تزرع اليأس في نفوس العاملين بذرةً بذرةً، بإعطاء الوقائع المعادية صورة أكبر منها بكثير، وحشد الأجواء بالأوضاع المثيرة التي يشعر العاملون معها بأنّ الجوّ كلّه قد تحوّل إلى صفوف الأعداء وتضخيم الأخطاء التي يقع فيها العاملون، إلى الحدّ الذي يشعرون معه بانهيار معنويّاتهم أمام الناس... وبذلك يفقدون الشعور بقيمة العمل وجدواه، عندما يفقدون قداسة الفكرة في ضمير الناس.

وقد تتمثّل الأساليب بالإيعاز إلى بعض المنحرفين عن الخطّ الصحيح بالسير في اتجاه الخطّ، وحمل شعاراته، كممثّلين رسميين له، لينسفوا الفكرة من الداخل بأساليب جهنّمية، وخطط شيطانيّة تلبس لبوس التقوى وترتدي رداء الإيمان، الأمر الذي يجعل الدخول معهم في معركة، إثارةً لمعارك شخصيّة في نظر الناس، وتمزيقاً لوحدة الصف في نظر آخرين.

وربّما نلمح ذلك واضحاً في الصور المشوّهة التي نشاهدها لأدعياء العلم والدين الذين استطاع أئمّة الكفر والضلال أن يجعلوا منهم واجهةً لمحاربة أساس الفكرة في الصميم.

كما قد نلمحه في الواجهات التي يعرضها الاستعمار وعملاؤه أمام الشعوب كصورة رائعة للمبادئ الكبيرة والقيم الرائعة التي تنطلق نحوها أهداف الشعوب، ليلتفّ الناس حولها بعفويّة وبساطة، فتكون النتيجة الخراب والدمار والضياع باسم القيم وتحت مظلّة المبادئ والأفكار الكبيرة.

اليأس في المجال الوطني

وينطلق اليأس ـ بعد ذلك ـ ليعيش في الأوضاع القاسية التي قد يمرّ بها الوطن عندما تشتدّ حوله الأزمات وتثور في داخله العواصف حتى لتكاد أن تقتلعه من جذوره.

فقد يقع فريسة استعمار سياسيّ أو عسكريّ أو اقتصاديّ من قِبَل قوى كبيرة لا تملك أمامها أيّة قوّة تقترب من قوّتها فضلاً عن أن تتساوى معها.

وقد يقع تحت رحمة تحدّيات خارجيّة أو داخليّة تتحدّى عزّته وكرامته وسلامته دون أن يجد في إمكاناته وقدراته، ما يجعله في مستوى مواجهة هذه التحدّيات، فيضعف ويتضاءل ويتعاظم لديه الشعور بالضعف حتى يتحوّل

الاستسلام عنده إلى واقعيّة، ويعود الخضوع لديه ليتحوّل إلى حركة بارعة من حركات المحافظة على القوّة والسلام وينقلب الذلّ الوطني ـ في نظره ـ إلى أسلوب ذكيّ من أساليب الحفاظ على السلامة الوطنية.

ويحاول الأعداء ـ في هذا الجانب ـ أن يخطّطوا لليأس في البلاد التي يستعمرونها لئلا تثور، أو البلاد التي يريدون استعمارها أو استغلالها، لِئَلّا تتحفّز للنضال.. فيوجّهون الأجهزة من الداخل، لتفتّش عن عوامل الضعف لتستغلّها، وتبحث عن عوامل اليأس الرافدة في اللاشعور لتوقظها في خدمة الخطّة الطويلة الأمد.

وينطلقون مع الأجهزة من الخارج، من إعلام ومال ورجال وسلاح ليوجّهوها إلى هذا الوطن الصغير أو الضعيف ليشعر، مع هذا المدّ الطاغي من الدعايات المضلّلة عن قوّة المستعمر أو حلفائه من ناحية السلاح والمال والرجال، أنْ لا فائدة من المقاومة والوقوف أمامه، ولذا فلا بدّ من الاستسلام ليسلم ويعيش تحت رحمته راضياً مطمئناً انطلاقاً من قول القائل: «إذا كنت مأكول الطعام فرحِّب».

اليأس بصورة عامة

وإذا جرينا مع اليأس في مجالات أخرى، فسنجد أنّه يمثّل الحالة التي تكرِّس التأخّر والتخلّف في جميع المجالات. فهو يمنع العالِم عن الانطلاق بعيداً في التفكير في حلِّ المسائل المعقّدة عندما يصعب عليه الحلّ السريع. إنّ اليأس يجعله حائراً أمام علامات الاستفهام الحائرة دون جدوى و يمنع العاملين في المجالات الاجتماعيّة من السير قُدماً أمام التجارب الفاشلة الكثيرة في حياتهم العملية.

كما يشارك في تهديم الحياة العائلية عندما تواجه الأطراف المشاكل اليوميّة أو الحياتية التي يحتاج حلّها إلى جهد وصبر طويل، فقد يؤدّي اليأس من معالجة

هذه المشاكل لدى الطرفين إلى عاملٍ قويٍّ في إنهاء العلاقات الزوجية بسرعة دون مبرّر.

وهكذا يشارك اليأس في تدمير حياة الإنسان على المستوى الشخصيّ والفكريّ والوطنيّ والحياتيّ بشكلٍ عام.

فماذا نفعل أمام هذا كلّه؟

وما هو موقف الإسلام من قضيّة اليأس والأمل في الحياة؟

هل لديه شيء جديد؟

اليأس موقف غير إسلامي

لقد حاول الإسلام ـ في القرآن الكريم، أن يعطي اليأس مفهوماً دينيّاً يصل به إلى مستوى الكفر بالله.

فمعنى أن تؤمن بالله أن يظلّ الأمل يبعث في نفسك اخضرار الحياة، ومعنى أن تيأس، أنّك تعيش الكفر بالله في أعماق ذاتك، وإن كنت تعلن كلمة الإيمان بلسانك.

أما كيف يكون ذلك فسنحاول التعرّف عليه من خلال الآيات الكريمة:

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[يوسف: ٨٧].

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ * قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ* قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ * قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ﴾[الحجر: ٥١ ـ ٥٦].

فنحن نلاحظ في البداية أنّ الظروف التي أحاطت بالقضيّة التي تحدّثت عنها

الآية الأولى، لا تشجّع على الأمل من خلال الوقائع والأحداث التي تجسّدت فيها انطلاقاً من الرواية التي مثّلها أخوة يوسف بشكل مسرحيّ مثير يبعث على الاطمئنان، إلى المدّة الطويلة التي يُقدِّرها بعض المفسّرين بعشرين سنة دون أن يأتي عن يوسف أيّ خبر من قريب أو بعيد، الأمر الذي يجعل موضع الأمل بوجوده وعودته، فكرةً خيالية تعيش في نطاق الآمال والأحلام اللّذيذة البعيدة.

ولكن ذلك كلّه لم يمنع يعقوب أن يعيش الأمل في مثل الوحي الداخلي الذي ينبع من إيمانه، حتى ليحسّ معه بطعم الحقيقة في روحه وكيانه فيبدأ في تذكّر يوسف في أكثر من مناسبة.

فنراه في بعض الحالات يقول: ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾[يوسف: ٨٣] الأمر الذي يدلّنا على أنّ اليأس لم يتسرّب إلى وجدانه، ولكنّ اللّوعة لا تزال تثور في داخله كنتيجة للإحساس ببُعد الأمل وصعوبته، كما تشير إليه الآية الكريمة.

﴿**وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[يوسف: ٨٤ ـ ٨٦].

فهو يثير الحزن واللّوعة في نفسه أمام الله ليهبه الطمأنينة والسلام الروحيّ، والإيحاء الذاتي بالفرج القريب حتى لكأنّه ينظر إلى المستقبل يُشرق أمامه ـ بعد ذلك ـ في إشراق روحيّ رائع يغمر قلبه، فتنطلق كلماته بالأمل القريب الذي يستروح فيه روح الحياة من جديد، وكأنّه الحقيقة الماثلة أمامه في صدق وإيمان:

﴿**وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ**﴾[يوسف: ٩٤].

وكان يخاف من لومهم وتأنيبهم لأنهم لم يرتفعوا إلى مستوى الإيمان الذي يرتفع إليه، ولم يعيشوا مع روح الله الذي يغذّيه بالأمل كما عاش. ولهذا بادروه بهذه الكلمة اليائسة الخانقة:﴿ **قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ**﴾[يوسف: ٩٥].

كيف حدث هذا كلّه؟

هل هناك تعليمات معيّنة ووحي خاص من الله ليعقوب كما يحاول بعض المفسّرين أن يفترضوا؟

أو أنّ القضية قضية الإيمان الذي يظلّ يزرع اخضرار الحياة في نفس الإنسان؟

إننا نميل إلى الفرض الثاني انطلاقاً من طبيعة القضية ومن أوضاع يعقوب، ومن تركيزه على رفض عنصر اليأس باعتباره عنصراً من عناصر الكفر والضلال.

أمّا في الآيات الأخرى التي حدّثتنا عن قصّة إبراهيم مع الملائكة الذين وفدوا إليه رُسُلاً مبشّرين من قبل الله بغلام حليم، فأنكر عليهم الفكرة في البداية على أساس القوانين الطبيعيّة التي تمنع حدوث الولادة لمن كان في مثل سنّ إبراهيم وعمر زوجته التي تجاوزت الحدّ الطبيعي الذي تحمل فيه المرأة، كما تشير إليه بعض الآيات الكريمة في سورة هود:

﴿**وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ**﴾[هود: ٧١ ـ ٧٣].

فالقضية لا تشجّع على الأقل من زاوية النظرة العادية التي تخضع للقوانين المألوفة للأشياء.

ولكنّنا نلاحظ أنّ الملائكة أثاروا أمامه قضيّة اليأس والقنوط، وأوحوا إليه بأنّ هذا الموقف يمثّل اليأس بعينه من رحمة الله، فلم تكن البشارة على أساس الوضع المألوف، بل هي خاضعة للقدرة الإلهية التي تتضاءل الحدود والقوانين المألوفة أمام قوّتها اللامتناهية. وهكذا رأينا إبراهيم يرجع إلى القضية في إطارها الإيماني فيقرّر بصورة لا تقبل الشكّ، بأنّ الموضوع أصبح مختلفاً من خلال هذه النظرة التي تتجاوز القوانين الطبيعية. إلى الآفاق الواسعة لقدرة الله تعالى فأطلقها قاعدة عامة للحياة توقظ الأمل في نفس الإنسان عندما يختنق باليأس أمام الواقع المنظور لتربطه بالواقع غير المنظور الذي تتحطّم أمامه الحواجز وتتلاشى القوانين.

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ﴾[الحجر: ٥٦].

ففي كِلا الموقفين نجد اليأس يفرض نفسه على الإنسان في ظلّ الوقائع القاسية والقوانين المألوفة، ومع ذلك يأتي الأمل من خلال الإيمان ليجعل النفس تعيش في جوّ الانفتاح والطمأنينة أمام رحمة الله.

كما نلمح الأساس الدينيّ في رفض اليأس في حديث إبراهيم ويعقوب، اللّذين اعتبرا اليأس كفراً والقنوط ضلالاً، وكلاهما ينطلقان من منطلق واحد ويرجعان إلى أساس واحد.

أما كيف نعتبر اليأس كفراً وضلالاً؟ فهذا ما يشير إليه الفخر الرازي في تفسيره الكبير ج ١٨، ص ١٩٩ بقوله:

«واعلم أنّ اليأس من رحمة الله لا يحصل إلا إذا اعتقد الإنسان أنّ الإله غير قادر على الكمال، أو غير عالم بجميع المعلومات أو ليس بكريم بل هو بخيل، وكلّ واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر، فإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحد هذه الثلاثة، وكلّ واحد منها كفر، يثبت أنّ اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافراً».

ومن خلال ذلك كلّه نعرف أنّ القرآن الكريم أراد أن يقتلع جذور اليأس من نفس الإنسان بإعادته إلى إيمانه، لينطلق معه في وعي ويقظة كبيرين يجعلانه يشعر بالأمل يتفجّر من ينابيع الإيمان كمثل الشعاع المنسكب من قلب الشمس في روعة الشروق.

وبهذا يلتقي الإيمان بالأمل في وحدة رائعة تجعل الروح التي تفرض أحدهما على الإنسان تفرض الآخر عليها ككلّ شيئين متلازمين في الوجود.

أما اليأس فجذوره تمتدّ إلى الجذور الأولى للكفر إن لم يشعر الإنسان به بشكل مباشر. وعلى ضوء هذا، فإنَّ على الإنسان الذي يعيش اليأس في قلبه أن يعيد النظر في إيمانه ليجده هل هو منطلق من أساس متين أو أنّه ليس بعميق الجذور.

وقد نجد في بعض الآيات القرآنية، روح الفكرة التي استوحيناها من الآيات السابقة في إثارة الأمل الأخضر في قلب الإنسان عندما تجدب روحه بعوامل اليأس وذلك قوله تعالى:

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾[الطلاق: ٢ ـ ٣].

فنحن نستوحي من هذه الآية أنّها تريد أن تصوّر للمؤمن الذي يتّقي الله، الحالات الصعبة في حياته، سواءٌ منها التي تتعلّق بواقعه المادي، أو التي تشمل واقعه الحياتي بشكل عامّ، عندما يلتفت إلى كلّ الأبواب فيجدها مغلقة، وإلى كلّ الطرق فيراها مسدودة، فليس هناك منطلق للحركة، وليس لديه منفذ للتغيير.

ثمّ توحي له بكلّ ثقة وطُمأنينة، أنّه سيجد المخرج من هذا المأزق حيث لا

مخرج وسيلتقي بالرزق من حيث لا يحتسب، فليست الوسائل للحياة هي هذه الوسائل المحدودة التي يراها الإنسان في عالمه المنظور، بل هناك ألف وسيلة ووسيلة، وألف باب وباب، لا يعلمها الإنسان الذي لا يفكّر إلا من خلال ما حوله، لكنَّ الله الذي خلق الحياة ووسائلها يعلم ذلك كلّه، لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء.

إذاً على الإنسان أن يثق بالله ويتوكّل عليه، فهو يكفي الإنسان من كلّ شيء ومن كلّ ضيق.

وهكذا نجد في هذه الآية، أنّها لا تكتفي بمحاربة الجانب السلبي الذي يتمثّل باليأس، بل تحاول أن تثير في نفس الإنسان الدوافع الذاتية للأمل من خلال الإيمان بالله لتربطه بالجانب الإيجابي للحياة الذي يجعله ينطلق بآفاقه إلى أبعد من الواقع المنظور المحدود.

الأمل من خلال النظرة الواقعية للحياة

لا يكتفي الإسلام بإثارة الأمل في نفس الإنسان من خلال الإيمان فحسب، لأن ذلك قد يفقد أثره ـ في بعض الحالات ـ ما لم يرتكز على أساس واقعي ملموس، فإنّ النفس عادةً تتأثّر بالواقع المحسوس أكثر ممّا تتأثّر بالفكر النظريّ.

ولهذا حاول القرآن الكريم أن يربط الإنسان بالإيمان بالغيب من خلال التفكير بأسرار الحياة ودقائقها التي تربط الإنسان بالينبوع الخالد للإيمان.. وعلى ضوء ذلك، اتّخذ القرآن الكريم أسلوباً واقعياً في إثارة روح الأمل في الإنسان، انطلاقاً من السُّنة الطبيعيّة التي أجرى الله عليها الحياة من أنَّ الشدّة يعقبها الفرج، والعُسر يتبعه اليُسر فالحياة تحتضن المشاكل كما تحتضن الحلول، وتفرض الخسارة كما تفرض الربح وتزرع الابتسامات كما تهرق الدموع.

وإذا لم يكن في الحياة حالة نهائيّة، فما معنى أنّ تتجمّد في فكرك على هذه الحالة، وتُغلق بصرك عن الحالات الأخرى.

إنّك ـ بذلك ـ تنحرف عن التصوّر الصحيح للحياة فتعطي للحياة غير معناها، وتتّجه بها في غير طريقها الطبيعي.

فإذا عصرتك ظروف الحياة الخانقة، وأحكمت الطوق في عنقك حتى الاختناق، فلا تتصوّر خلود هذه الظروف الصعبة، بل التفت إلى حياتك الماضية أو حياة الآخرين لتجد أكثر من شاهد على أنَّ الظروف الصعبة تتغيّر إلى ظروف طيِّعة سهلة تمحو عن النفس كلّ آثار الصعوبة..

على ضوء هذا، فما الذي يجعل من ظروفك القاسية الحالية بِدعاً من الظروف.. وما الذي يغيّر من حركة الحياة التي لا تستقرّ على حال؟

إنّ القرآن ـ وهو يعرض للإنسان صور الحياة المتحرّكة في أكثر من اتجاه ـ يحاول أن يغيّر نظرتك الضيّقة التي تتجمّد في حدود اللّحظة الحاضرة، لتشعر ـ من خلال ذلك ـ أنّه لا مانع من أن يتبدّل الحاضر ليعيش المستقبل مع الخير ـ كما عاش الماضي معه ـ في تجاربك الذاتية الماضية، أو تلتفت إلى حياة الآخرين الذين عاشوا في ظروف مماثلة لظروفك، ومشاكل مشابهة لمشاكلك، ثمّ عادوا وتغلّبوا على المشكلة بأفضل الحلول التي اهتدوا إليها من خلال البحث والصبر الإيجابي الواعي، وتمرّدوا على الظروف بإصرار المترقّب للفرج، فانطلقوا مع الظروف الجديدة التي استطاعت أن تُخرجهم من الواقع الخانق إلى الواقع المنفتح على الحياة الواسعة بأرحب مجالاتها ومنطلقاتها.

وقد نلمح هذه الفكرة في الآيات الكريمة التي تتحدّث عن الإنسان الذي ييأس عندما تنزع منه مظاهر رحمة الله، وآثار نعمة الله، دون أن يلتفت إلى أنّ الذي نزع الرحمة بعد أن وهبها قادرٌ على أن يُرجعها مرّة ثانية، كما أرجعها في

حالات مماثلة في حياة الإنسان وحياة الآخرين.

ولنقرأ الآيات الكريمة:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ﴾[هود: ٩].

﴿ لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاء الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ﴾[فصلت: ٤٩].

﴿إِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً﴾[الإسراء: ٨٣].

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم : ٣٦].

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾[الطلاق: ٧].

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾[الشرح: ٥ ـ ٦].

فهي تشجب في الإنسان يأسه وقنوطه أمام البلاء وتدعوه إلى أن ينظر إلى الحياة نظرة واقعية، فلا تُطغيه النعمة، ولا تصرعه النقمة، بل يواجه الحالتين بروح المؤمن الواعي الواثق بالفرج بعد الشدّة، والعارف بأنَّ الحياة لن تدوم على حال واحدة.

وخلاصة البحث: إنّ اليأس من خلال ما قدّمناه موقف غير إسلامي لأنّه يتنافى مع الجذور الأساسية لعقيدة الإيمان بالله من جهة، ويتعارض مع النظرة الواقعية التي رسمها الإسلام للحياة.

وإذا وعى الإنسان هذه الحقيقة استطاع أن يعالج حالات اليأس التي تعصف

بروحه، في حالة غفلته عن إيمانه، وانحرافه عن التصوّر الصحيح للحياة، وذلك بالعودة إلى ينابيع الإيمان، والرجوع إلى الآفاق الرحبة للحياة التي تفتح للإنسان باب الأمل كأوسع ما يكون الأمل، ليعود ـ بعد ذلك ـ إلى حياته كإنسان إيجابي يواجه الحياة بقوّة انطلاقاً من الموقف الصحيح بدلاً من الموقف الخطأ.

فإن المؤمن يمثّل العودة السريعة عن الخطأ والرجوع الواعي عن الغفلة في أوّل لحظة لليقظة، وأقرب فرصة للتذكّر انسجاماً مع الآية الكريمة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[الأعراف: ٢٠١].

النظريّة في إطار التطبيق

وما دامت القضيّة قد وُضّحت إلى حدّ بعيد واستطاعت أن تمنحنا القدرة على إثارة الأمل في داخل الإنسان من بين نوازع اليأس وعوامله، فقد يجدر بنا أن نبدأ في الانتقال بها من إطار النظريّة إلى واقع التطبيق، ككلّ نظرة تتّصل بالحياة وتؤثّر في مسيرة الإنسان.

ولعلّ من أكثر الجوانب إلحاحاً في موضوعنا هذا، هو جانب الانتحار الذي يمثّل قِمّة الآثار السلبية لليأس بالنظر إلى أكثر حوادث الانتحار في العالم، من دون فرق بين الناجحين وبين الفاشلين.. وفي الدول التي تحكمها النظم الرأسمالية والدول التي تحكمها النظم الاشتراكية..

وقد عرفنا أنّ الانتحار ينطلق من الشعور بالاختناق أمام حالة اليأس من وجود الجديد في الحياة، أو من تحقيق الرغبة الشخصيّة في موضوع عاطفي، أو وطني أو دينيّ.. فإذا استطعنا أن نأخذ من واقع الحياة تعدّد مجالاتها، وتنوّع مسالكها، ففي كلّ يوم هناك جديد يتعلّمه، وفي كلّ منطلق هدف يتّجه إليه، والقمم في

الحياة كثيرة، فلا تنتهي الحياة عند قمّة واحدة ينتهي إليها الإنسان، فهناك قممٌ أخرى يستطيع أن يبدأ طريقه إليها من جديد، ليشعر بلذّة الاكتشاف ويحقّق رغبته الذاتية في التعرّف إلى المجهول، فإذا أتخمته اللّذة، فقد يجد بعض راحته في بعض ألوان الحرمان، وإذا أسكره النجاح حتى لم يعد يجد نشوةً جديدة، فقد يتّجه اتجاهاً آخر يجرّب فيه طعم الصعوبة والمشقّة التي لا بدّ منها في الشعور باللّذة من جديد.

أما الذين وقفوا أمام رغباتهم الظمأى يائسين، فلم يشعروا بطعم الحياة في ظلال الحرمان... فقد ينبغي لهم أن يلتفتوا إلى الحياة هنا وهناك، ليشعروا بأنّ العُسر سوف يتحوّل إلى يُسر، وأنّ الصعوبات التي تعترض الأشخاص في طريق تحقيق رغباتهم، ليست خالدة خلود الحياة.

وربّما يجرّبون إعادة النظرة بعض الشيء في رغباتهم، فلعلّهم يستطيعون تعديل بعض ملامحها، وأوضاعها، فقد يكون في ذلك حلّ المشكلة، لأنّ كثيراً من الصعوبات التي تواجه الإنسان في طريق رغباته، قد تنشأ من النظر فيها إلى القضية من جانب ضيّق، معه الأمل.

أمّا إذا تبدّلت النظرة إلى مجال أوسع، فقد يتّسع الأمل حيث تتّسع إمكانية الحلول.

وقد يكون من الوسائل العملية للوصول إلى ذلك أن يستعين الإنسان بالأحداث التي واجهها الآخرون ممّن كان لهم نفس مشكلته، ونفس حالته، فلم تتحقّق رغباتهم، ولم يصرعهم الحرمان، بل تجاوزوه إلى واقع جديد، انفتحت لهم فيه آفاق جديدة، عادوا يسخرون ـ من خلالها ـ من الماضي الذي كانت تلحّ فيه الرغبات المجنونة لأنّها تكشّفت لهم عن أشياء هزيلة لا تستحقّ من الإنسان أيّ اهتمام، يشعر معه بضرورة التضحية أمامها بأغلى الأشياء.

إنّ كثيراً من رغبات الإنسان التي تندفع إلى حياته بجنون، ترجع إلى نزوات عابرة، يحوّلها الخيال إلى وهم كبير يوحي للإنسان باتصالها الوثيق بالحياة وارتباطها الكبير بقضية المصير.

ولكنّ قليلاً من التحليل للدوافع والعوامل المحيطة بالقضية، يكشف للإنسان كيف يتحوّل السراب إلى وهم كبير يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فيعرّفه كيف تنطلق الحقيقة من خلال الصبر العميق.

أما ما يحتاجه الشباب والفتيات في الخروج من أزمة اليأس التي تهدّد حياتهم بالاختناق، وتتّجه بها في اتجاه الانتحار.. فهو أن يقفوا قليلاً ليقارنوا بين تفكيرهم الماضي وتفكيرهم الحاضر ليجدوا ـ في النتيجة ـ أنّ مرحلة العمر التي تجاوزوها قد استطاعت أن تمنحهم تجربة جديدة وسّعت أفق تفكيرهم، فماذا يمنعهم أن ينتظروا المرحلة الجديدة، ليشعروا بتفاهة ما كانوا يفكّرون إزاء واقع المرحلة الحالية للفكر.

إنّ الحرمان لن يصرع الإنسان، إذا استطاع أن يكتشف مناطق جديدة تغذّي جوع الإنسان للحياة.

وللحياة أكثر من ينبوع يتفجّر بالريّ، وأكثر من حقل يهتزّ بالخضرة، وفيما بين هذا وذاك يجد الإنسان الحياة تفتح ذراعيها لكلّ متعب محروم.

أمّا العاملون من أجل الإصلاح والخير للناس الذين تواجههم الصعوبات في الطريق حتى لَيَشعروا باليأس يتحدّى خطاهم السائرة نحو القِمّة، أمّا هؤلاء، فقد لا نجد كثيراً من الجهد في الانطلاق معهم إلى تجارب الأنبياء والأولياء والمصلحين الكبار في العلم الذين وقفت ضدّهم عقبات الطريق بكلّ قوّة حتّى كأنّ الأفق ينتصب أمامهم كجدار يرتفع حتى ليحجب عنهم الهواء، ولكنّ الحياة فتحت لهم أبوابها ـ بعد ذلك ـ فدخلوها بكلّ قوّة استطاعت رسالاتهم ودعواتهم أن تقتحم الخلود لتسير معه في حركة الأجيال الصاعدة في كلّ زمان ومكان.

لقد واجه المسيح عليه السلام في رسالته كلّ ألوان الاضطهاد والتعذيب، ولم يجد اليأس سبيلاً إلى قلبه لأنّه كان ينظر إلى المستقبل بأمل يرتكز على النظرة الواقعية للحياة.

وامتدّت رسالته بامتداد الزمان وتساقطت العقبات واحدةً واحدةً على الطريق، وانفتح الدرب أمام خطى الرسالة.

وواجهت الصعابُ النبيَّ محمّداً صلّى الله عليه وآله وسلّم، كما لم تواجه أحداً من قبله، وتحمّل العذاب والحرب على جميع الجبهات، ولم تكن عوامل الأمل كثيرةً لديه من خلال الواقع المنظور، ولكنّ الرسالة بما تحمله من وعي للحياة وفهم عميق لطبيعة التطوّر في حياة الأمم، وإيمان كبير بالله استطاعت أن تملأ قلبه بالأمل الأخضر الذي امتدّ إلى كلّ ما حوله ومَنْ حوله، فانطلقت الرسالة من خلال الخطوات الصغيرة الهادئة إلى خطوات كبيرة واسعة تقتحم معها كلّ أسوار الحياة التي تنطلق في اتجاه القمم.

وعاشت الرسالة شاهداً على أنّ الخطوات التي تنطلق من خلال الأمل المنفتح، لن تتعثّر أبداً أمام عقبات الطريق.

ولم يكن هذا الأمل لدى الأنبياء والمصلحين، نتيجة خيال واسع كبير يفتح أبواب المستقبل على أجنحة الأحلام.

بل كان نتيجة فهم واقعيّ لطبيعة عمليات التغيير في الحياة، فإنّ من الملاحظ أنّ التقاليد والأفكار الموروثة والرواسب الماضية التي استطاعت السنون الطويلة أن تعمّقه في النفس إلى حدّ التحجّر.. لا يمكن أن تزول ـ فجأة ـ أمام الدعوات الجديدة، أو تنهار سريعاً أمام التحدّيات الصارخة، بل لا بدّ لها من أن تستيقظ لتدافع عن نفسها أمام الغزو الفكريّ الجديد، بكلّ ما لديها من قوى ذاتية تدفع إليها غريزة حبّ البقاء.

ولا بدّ للقوى الجديدة من أن تخوض عملية الصراع بكلّ ما تملكه من أساليب فكريّة، وقوى متحرّكة فتحاول أن تقتحم الأسوار في بعض الحالات، والأبواب في حالات أخرى، لتستطيع من خلال ذلك أن تضع قدميها على الأرض في حركة بارعة للنفاذ إلى الأعماق حيث الجذور الأولى تمدّ فكر الماضي بقوّة البقاء.

ومن الطبيعي أنّ حركة الصراع لا بدّ لها أن تستمرّ وتمتدّ وتظلّ لكي يتسنّى لها إضعاف الفكرة القديمة تدريجياً لتأخذ مكانها من جديد.

ولعلّ أروع الآيات التي تمثّل كيف يعيش الأمل في قلوب العاملين، مهما كانت عوامل اليأس قوية، هي قوله تعالى:

﴿وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[الأعراف: ١٦٤].

فنحن نلاحظ أنّ الآية قد فرضت الجماعة التي يُراد هدايتهم في مستوى الهلاك والعذاب المحقّق يوم القيامة فليس هناك أيّ أمل يرجى لديهم إزاء الأعمال التي يقومون بها، والجرائم التي يرتكبونها.

ولكنّ العاملين كانوا في مستوى الرسالة، فهم يريدون أن يُعذروا إلى الله سبحانه في أداء رسالتهم، ويحاولون أن يلاحقوا الأمل البسيط، ولو بنسبة واحد في المائة، لِئَلا يفقدوا القدرة على الأمل.. فكأنّهم يقولون لهؤلاء الذين يلومونهم: لماذا تيأسون من هدايتهم ما دامت النفس الإنسانيّة تخضع للحقّ وللخير في كثير من لحظات النور الذي يُشرق في داخل الناس سريعاً ثم يغيب، فقد نستطيع في هذه اللّحظات السريعة أن نجعل النور يستمرّ في النفس من خلال الرسالة التي تلاحق كلّ فرصة جديدة وكلّ أمل جديد.

أمّا الذين يصرعهم اليأس فيُقعدهم عن النضال والجهاد في معركة العزّة

والكرامة عندما يبدأ العدو بحرب الأعصاب النفسيّة التي يُخيَّل إليهم بأنّ العدوّ لا يقاوَم، وأنّ كثرة العدوّ وقوّة سلاحه، وتعدّد مجالاته، يجعل الحرب خاسرة منذ البداية.

وهكذا يستسلمون للاستعمار وللاستغلال ويستريحون للحياة الذليلة الخاضعة الخانعة التي توحي لهم بالأمن والطُّمأنينة والسلام.

أمّا هؤلاء فقد استطاع القرآن أن يخاطبهم ليُشعرهم بأنّ الكثرة ليست مقياس الانتصار، كما أنّ القلّة ليست مقياس الهزيمة، فهناك أكثر من فرصة للنصر أمام الفئات القليلة إذا استطاعوا استغلالها واستعمالها في طريق الصراع، انطلاقاً من التاريخ الذي يحمل كثيراً من النماذج التي تؤكّد الفكرة، ومن النظرة الواقعيّة لقضيّة النصر والهزيمة التي تخضع لأساليب عديدة لا تجعل المسألة تعيش في اتجاه واحد.

وهكذا نستطيع أن نتغلّب على الحرب النفسيّة التي يريد العدوّ من خلالها أن يخلق اليأس في نفوسنا ليربح المعركة قبل أن يدخل المعركة.. باستخدام قوانا التي نملكها في المجالات التي تحرّك القضية، ومحاولة ربح قوى جديدة من خلال الظروف التي تحيط بنا، والتطلّع إلى المدى الطويل الذي قد يخسر في حركته بعض المعارك، ولكنّه يستطيع في النهاية أن يربح الحرب.

وليس هذا حلماً نحلم به، أو خيالاً نتخيّله، أو تمنيات تعيش في النفس، بل هو واقع الحياة العمليّة الذي يعيش في حساب القضيّة كما يتمثّل في تاريخ الشعوب.

خاتمة المطاف

وهكذا نبلغ خاتمة الحديث لنجد أمامنا القضية واضحة على مستوى النظريّة وهي أنّ الإيمان يساوي الأمل، واليأس يساوي الكفر، كما أنّ الأمل يمثّل النظرة الواقعية العملية، أمّا اليأس فيمثّل النظرة الضيّقة للحياة. أمّا على مستوى التطبيق

فهناك أكثر من مجال، وأكثر من منطلق يستطيع الإنسان أن يعيش معه في حياته الخاصة والعامة ليثير الأمل في نفسه من خلال واقع حياته ومن خلال تجارب الآخرين في الماضي والحاضر.

وقد أراد القرآن الكريم من الإنسان أن يتعلّم من التاريخ كيف يجابه مشاكله من خلال الظروف التي عاشها الآخرون، ليعرف أنّ الحياة لن تتجمّد في زاوية واحدة وأنّ الجليد سوف يذوب مهما امتدّ الشتاء، ومهما اشتدّ الصقيع، فإنّ الربيع سرعان ما يخفق بدفء الحياة لينطلق في حياة الينابيع من جديد عندما تتدفّق السيول الهادرة لتغنّيَ للظامئين أغنيات الحياة المتفتّحة في كلّ زمان.

النقد.. والنقد الذاتي

النقد.. والنقد الذاتي

في حديثنا هذا.. نحاول الوصول إلى فكرة موضوعيّة كاملة عن النقد بصورة عامة، سواء منه الذي يتّجه إلى حياة الناقد، أو الذي يقتحم حياة الآخرين.

ثمّ.. عن النقد الذاتي، بصورة خاصة، هذا الذي يعني الوقوف وقفة هادئة مع الذات في عملية اكتشاف للداخل، من أجل معرفة مواطن الضعف ومواطن القوة، فيها، للوصول إلى فهم أفضل لمنطلقاتها وحركاتها، والحصول على وعي دقيق لأفكارها ومشاعرها كأساس لتقييم الذات من خلال طبيعة العمل، أو تقييم العمل من خلال دوافع الذات.

وليس هذا الحديث إلا محاولة متواضعة لإعطاء صورة واضحة عن حاجتنا الملحّة إلى هذا الأسلوب العملي في مواجهة واقعنا الذاتي والاجتماعيّ والسياسيّ والاقتصادي والفكريّ، لأنّ ذلك هو السبيل الأمثل الذي ينبغي أن تسلكه عملية النمو والتطوّر في حياتنا العامّة والخاصة، لنتلافى كثيراً من الأخطاء والانحرافات التي قد تضيع معالمها في الطريق إذا لم تلاحقها عين الناقد ولم يناقشها فكره.

وإذا كان ذلك يعتبر حاجة ملحّة، فلا بدّ أن يكون للإسلام فيها رأي حاسم ينطلق به في ميادين التوجيه والتشريع، ليرسم للإنسان الحدود التي لا يجوز له أن يتخطّاها في تحقيق الهدف، وليخطّط له الطريق التي تصله بالغاية دون

مضاعفات أو ملابسات.. نظراً إلى اختلاف الأساليب حسب اختلاف الأهواء الشخصيّة والاجتهادات الخاصّة التي قد تذهب بالنقد مذاهب شتّى تبتعد به عن هدفه، وتتيه به عن مراميه.

وهكذا نجد أنّ هذا الحديث هنا، لا يستهدف رسم صورة مجرّدة عامّة، بل يحاول إعطاء الصورة الحيّة للمفهوم الإسلامي للنقد من خلال تصوّر الإسلام للحياة، ويعمل على اكتشاف الأسلوب العملي الذي يجسّد له الصورة في الواقع، ويحوّلها إلى عمل وحياة.. لنصل من خلال ذلك إلى الفكرة الأصيلة الشاملة التي تقرّر للحياة كلّ خطواتها الفكريّة والعمليّة على أساس الإسلام، انطلاقاً من الحقيقة التي تفرض شمول التشريع الإسلامي لجميع الجوانب الحياتية للإنسان، لِئَلا يضيع في متاهات النظريّة المختلفة، ويغرق في خضمِّ التيارات غير الإسلامية، فيستسلم للحيرة القاتلة التي تعقّد له نفسه، وتشوّه روحه وتُفقده الثقة بكلّ شيء.

ما هو النقد؟

للنقد في كتب اللّغة عدّة معان، ولكنْ أبرزها معنيان يرتبطان بحديثنا هذا:

١ ـ التمييز بين الجيّد والرديء من الدارهم والدنانير، فيقال: نقدت الدراهم وانتقدتها إذا أخرجت الزيف منها.

٢ ـ العيب والثلم والتجريح فيقال: نقدت رأسه بإصبعي إذا ضربته، ويذكرون شاهداً عليه حديث أبي الدرداء «إن نقدت الناس نقدوك وإن تركتهم تركوك» أي: إن عبتهم أو أغتبتهم قابلوك بمثله.

ولعلّ المعنى الثاني، هو المعروف الشائع من هذه الكلمة، فقد استعمل النقد في معنى تعقُّب الأدباء والفنيين والعلماء والدلالة على أخطائِهم واذاعتها قصد

التشهير أو التعليم، وشاع هذا المعنى في عصرنا هذا وصارت كلمة النقد إذا أُطلقت فُهِمَ منها الثلم ونشر العيوب والمآخذ(*).

ولهذا اعتُبر النقد في كثير من المجتمعات مظهراً من مظاهر العداوة والبغضاء، وسبيلاً من سبل الإهانة والإيذاء، لأنه يمثّل البحث عن عيوب الشخص من أجل إظهارها للناس كوسيلة من وسائل التحقير والتشهير.

أما المعنى اللّغوي الأوّل، فلعلّه أنسب المعاني وألْيَقها بالمراد من كلمة النقد في الاصطلاح الحديث من ناحية، وفي اصطلاح أكثر المتقدّمين من ناحية أخرى فإنّ فيه معنى الفحص والموازنة والتمييز والحكم.

وإذا ما وقفنا عند ما يقوله الثُّقاة من النقّاد، رأيناهم لا يجاوزون هذه المعاني في حدّ النقد وفي ذكر خواصه ووظيفته.

فالنقد: دراسة الأشياء وتفسيرها وتحليلها وموازنتها بغيرها المشابهة لها أو المقابلة.. ثمّ الحكم عليها ببيان قيمتها ودرجتها.. يجري هذا في الحسّيات والمعنويات، في العلوم والفنون وفي كلّ شيء متّصل بالحياة(**).

ونحن هنا.. عندما نريد الحديث عن النقد والنقد الذاتي في الإسلام.. لا نريد أن نخصّ به معنى واحداً من هذين المعنيين، فإنّ لنا موقفاً مع كلٍّ منهما في تشريع الإسلام، لأنَّ كلاًّ منهما يعبّر عن مظهر حيٍّ من مظاهر السلوك الإنسانيّ في الحياة.

فهناك الذين يعتبرون عملية النقد وسيلة من وسائل التشهير والتحقير والتخريب والتهديم، كنتيجة طبيعية لحالة الحقد والبغضاء التي يعيشها الناقد إزاء الآخرين، وهناك الذين يعتبرون النقد عملية تقييم للمواقف، وتصحيح للسلوك، من أجل

(*) أصول النقد الأدبي صفحة ١١٥ لأحمد الشايب.

(**) المصدر السابق ـ الصفحة نفسها.

وضع كلّ شيء في موضعه، وإعطاء كلّ عمل قيمته، وتمييز الخطأ من الصواب والصحيح من الفاسد.. انطلاقاً من الرغبة الذاتية في البناء والتركيز واستقامة الخُطى في طريق الحقّ.

وإذا كانت الحياة تحتضن كِلا هذين النموذجين، فلا بدّ لنا من أن نقف معهما لنتعرّف موقع أقدامنا في الطريق عندما نريد السير مع كلٍّ منهما فيما يخطّط وفيما يريد، لنعرف كيف نحفظ خُطانا من الانحراف في غير طريق الله.

النقد في نطاق التشهير

أمّا الحديث عن النقد الذي ينطلق من مفهوم العيب والثلم والتجريح، وموقف الإسلام منه... فقد نجد الكثير منه ومن أحكامه في الأحاديث التي عرضت للغيبة وأحكامها، وللتعيير والبهتان والتفتيش عن عثرات المؤمنين وزلاّتهم وغيرها من المواضيع التي تلتقي عند نقطة واحدة، هي محاولة التعرّف على عيوب الإنسان ونقائِصه.. ثم مواجهته بها في حضوره، أو الحديث عنها في غيبته بما يكشف عن سرّه ويحطّ من قدره.

ولكي تبدو الفكرة واضحة أمامنا، لا بدّ لنا من أن نطرح أمامنا عدّة علامات استفهام تناقش أصل القضية وتبحث تفاصيلها.. وعلى هدى الأجوبة، تتحدّد النتائج، وتتّضح ملامح الفكرة.

أ ـ كيف ينظر الإسلام إلى الحياة الذاتية للإنسان المسلم من خلال اعتبارها منطقة محرّمة على الآخرين لا يجوز للآخرين اقتحامها أو الاقتراب منها وتسلّق أسوارها، أو منطقة مفتوحة يحقّ لكلّ إنسان اختراقها دون استئذان؟

ب ـ هل يحقّ للإنسان أن يواجه المؤمن بعيوبه وزلاّته في أيّة حالة من الحالات؟

ج ـ هل يحلّ لنا أن نتحدّث عن الناس ـ في غيابهم ـ بما نعرفه عنهم من نقاط

الضعف؟... وإذا كان ذلك حراماً، فهل يختلف الحكم باختلاف الدوافع النفسيّة التي تدفع إلى مثل هذا الحديث؟

د ـ متى يمكن اعتبار التشهير والتجريح ونشر عيوب الناس عملاً أخلاقيّاً وشرعياً؟ وهل يختلف الحكم حسب اختلاف الحالات التي تحيط بأجواء النقد؟

حماية الإسلام حياة الإنسان الذاتية

ما هي نظرة الإسلام إلى حياة الإنسان الخاصّة؟ هل هي منطقة مفتوحة للناس أو هي منطقة محرّمة عليهم؟

والجواب عن ذلك، أنّ لكلّ إنسان حرمة مقدّسة في نظر الإسلام، فليس لأيّ شخص أن يقتحم حياته الخاصّة دون رضاه، أو يعتدي على أسرارها دون إذنه، لأنّ ذلك هو معنى احترام حريّته وكرامته التي قرّرها القرآن الكريم، فله أن يمارسها ويحافظ عليها دون أن يملك الآخرون حقّ التدخّل فيها بضغط أو في نطاق الشعور العام بالمسؤوليّة.

ولهذا حرّم الإسلام التجسّس على حياة الآخرين في قوله تعالى في سورة الحجرات: ﴿**وَلَا تَجَسَّسُوا**..﴾ لأنّ في التجسّس اعتداء على حرية الإنسان في الاحتفاظ بأسراره الخاصّة، وحمايتها من الآخرين.

وجاء في الحديث الشريف، النهي عن محاولة التحقّق والتثبّت من الظنون التي تتعلّق بحياة إنسان ما، في أيّ جانب من جوانب حياته.

«**إذا تطيّرت فامضِ، وإذا حسدت فلا تبغِ، وإذا ظننت فلا تحقّق**..» لأنّ محاولة التأكّد من صحّة ظنونك وفسادها تعتبر عدواناً على حياة هذا الإنسان الخاصّة، من دون ضرورة تدعو إلى ذلك سوى إشباع غريزة الفضول في داخل ذاتك.

وربّما تعتبر بعض أحاديث أئمّة أهل البيت عليهم السلام إحصاء زلّات

المؤمن، من أجل تعييره بها بعد ذلك، من أقرب الأمور إلى الكفر، ومن أبعد الأشياء عن الإيمان.

ففي حديث للإمام محمد الباقر عليه السلام: «**إنّ أقرب ما يكون العبد إلى الكفر أن يؤاخي الرجلُ الرجلَ على الدين فيحصي عليه زلاّته ليعنِّفه بها يوماً ما**».

وفي حديث الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: «**أدنى ما يخرج به الرجل من الإيمان أن يؤاخي الرجلُ الرجلَ على دينه فيحصي عليه عثراته وزلاّته ليعيِّره بها يوماً ما**».

بل قد نجد في بعض النصوص الدينيّة ما يحرّم على الإنسان المؤمن التحدّث عن أسراره الخاصّة التي تهدم كيانه وتهتك حرمته، لأنّه لا يجوز للإنسان أن يهتك حرمة نفسه. كما نجد في نصوص أخرى الإرشاد للمؤمن إلى الاستتار بالمعصية فيما إذا ابتُلي بها، لأنّ الله لا يريد للإنسان أن يفضح نفسه فقد ورد في الحديث: «**إذا بُليتم بالمعاصي فاستتروا...**».

وعلى ضوء هذا نستطيع أن نقرّر حماية الإسلام لحياة الإنسان الخاصّة، فلا يمكن أن نجعل الفضول الشخصيّ مبرِّراً لاقتحام أسوار هذه الحياة.

وبهذا التشريع يُغلق الإسلام باباً كبيراً من أبواب النقد التشهيري الذي يدور في نطاق العيب والتجريح، لأنّه يمنع الإنسان من تغذية المعرفة الشخصيّة للآخرين بالاطّلاع عليها، ولا يبقى له إلا ما يطّلع عليه من طريق الصدفة، أو ما ينقله الآخرون إليه.

ولا فرق في ذلك بين الصحفي وبين غيره، فكما لا يجوز للذين لا يمارسون الصحافة أن يتلصّصوا على حياة الناس الخاصّة لمجرّد إشباع الفضول الذاتي، كذلك لا يحلّ للصحافيين ممارسته لمجرّد إشباع الفضول الصحفي الذي يحاول التعرّف على أكبر قدر ممكن من حياة الأفراد الذين يعملون في الحقل

الاجتماعيّ والسياسيّ والاقتصاديّ، من أجل تزويد الصحيفة بالمادّة الدسمة من أخبار المجتمع أو السياسة أو الاقتصاد، طمعاً في زيادة عدد القرّاء في تتّبع كميّة الفضائح الخاصة والعامة التي تنقلها هذه الصحيفة أو تلك.

مواجهة الإنسان بعيوبه

ونقف من جديد أمام السؤال الثاني:

هل يحقّ لنا أن نواجه الإنسان بعيوبه وزلّاته في أيّة حالة من الحالات؟

ولعلّ الجواب عن ذلك يختلف حسب اختلاف الدوافع التي تدفع الإنسان إلى هذه المواجهة، أو الأجواء النفسيّة التي يخلقها الحديث في نفس الطرف الآخر.

فقد يكون الدافع الذي يدعونا إلى مواجهة الإنسان بعيوبه، هو النصح والتوجيه والإرشاد من أجل أن يصحّح هذا الإنسان موقفه الخاطئ، أو يغيّر طريقه المنحرف.

وربّما يكون الدافع هو التعيير والتحقير أو الإيذاء والإهانة من أجل أن يحطّم له شخصيّته، أو يخفّف من شعوره بالكرامة.

ففي الحالة الأولى: نجد التشريع الإسلامي يتّجه إلى تشجيع مواجهة الإنسان أخاه المؤمن بالأحاديث التي تكشف له عن عيوبه وأخطائه لتأخذ بيده إلى الطريق المستقيم وتَبعُد به عن الطريق المنحرف، لأنّ ذلك يمثّل الأسلوب العملي لتعاون المؤمنين مع بعضهم على تسديد خطاهم وتقوية شخصيّاتهم، وتنمية ذواتهم في الاتجاه الصحيح انطلاقاً من الفكرة الإسلامية التي عبّر عنها الحديث الشريف الذي يخاطب كلّ مؤمن.

«**لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه...**».

هذا من جهة.

ومن جهة أخرى نلتقي بالحقيقة الاجتماعيّة التي ترى أن انحراف الفرد يترك أثره الكبير على استقامة المجموع لما يُحدثه من آثار سلبية على حركة المجتمع ونموّه، كنتيجة طبيعية للارتباط العضوي بين المجتمع وأفراده.

وقد حاولت النصوص الدينيّة التركيز على النقد في هذا الاتجاه بأسلوبين:

أحدهما: يدعو الناقد إلى أن يقوم بهذه المهمّة الصعبة تجاه إخوانه المؤمنين بروح إيجابية واعية تنطلق في طريق البناء لا الهدم، الأمر الذي يجعل من عملية النقد عملية نصح وتوجيه.

ثانيهما: الأسلوب الذي يدعو الشخص الذي يُواجَه بالنقد إلى أن يشعر بالامتنان تجاه الناقد، ويتحسّس بالروح الخيِّرة التي تُملي عليه نقده، ويوجّهه إلى مطالبة إخوانه بأن يواجهوه بعيوبه ليقوم بإصلاحها، كما يواجهونه بحسناته ليستزيد منها دون أن يجد في نفسه أيّ ردّ فعل معاكس إزاء ذلك.

أمّا الأسلوب الأوّل: فيتمثّل في الأحاديث المأثورة عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعن أئمّة أهل البيت عليهم السلام التي تتحدّث عن حقوق المسلم على المسلم.

فمن ذلك الحديث الشريف المأثور عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي ذكر فيه ثلاثين حقّاً للمسلم على المسلم وجعل من تلك الحقوق.. أن يديم نصيحته.

ومن الواضح.. أنّ النصيحة تكون بتوجيه الإنسان إلى المواقف الصحيحة بدلاً من المواقف الخاطئة، كما تكون بإعطائِهِ الرأي الحقّ في حالة المشورة.

ومن ذلك الأحاديث الشريفة التي اعتبرت المؤمن مرآة أخيه، كما في الحديث النبوي الشريف:

«**المؤمن مرآة أخيه يميط عنه الأذى...**».

والحديث المأثور عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام:

«**المسلم أخو المسلم هو عينه ومرآته ودليله..**»

وفي حديث آخر عنه ـ وهو يعدّد حقوق المؤمن على المؤمن ـ:

«**الحق الرابع: أن تكون عينه ودليله ومرآته...**».

ولعلّنا نقف من هذه الأحاديث على طبيعة الروح التي يعيشها الإنسان المؤمن تجاه أخيه من خلال التعبير بالمرآة.

فنحن نعرف أنّ مهمّة المرآة أن تكشف للإنسان عيوب وجهه في نظافته وأناقته بكلّ وضوح، دون أيّ تأثير سيّئ، بل كلّ ما هناك أن تثير في نفسه الرغبة في الإصلاح والتغيير، وبعبارة أدقّ: أن تضعه وجهاً لوجه أمام العيب في صورته أو الخطأ في أناقته ليتولّى ـ بعد ذلك ـ مهمّة اتخاذ الموقف المناسب.

فإذا اعتبرنا المؤمن مرآة لأخيه، وأضفنا إليه ـ بعد ذلك ـ أن يكون عينه ودليله فسنجد أنفسنا نواجه الأساس النفسيّ للنقد، وهو أن ينطلق النقد عن قصد صحيح يستهدف تعريف الإنسان ما يستطيع معرفته ـ بنفسه ـ بسهولة، تماماً، كما هي عيوب الوجه التي لا يستطيع التعرّف عليها بدون المرآة، أو كما هي عيوب الأعمى الذي لا يتمكّن من الاطّلاع عليها إلاّ بواسطة عيون الآخرين.

وعلى ضوء ذلك: نعرف حاجتنا إلى الشعور بالمحبّة في عملية النقد، تماماً، كما هو شعور الإنسان الذي يحاول أن يدلّ الأعمى على عيوب وجهه التي لا يراها ليكون له بمثابة العين التي يبصر بها.

أمّا الأسلوب الثاني: فيتمثّل في الحديث الشريف المأثور:

«**رحم الله امرءاً أهدى إليّ عيوبي**».

فهو يوحي إلينا أن يكون شعورنا وإحساسنا الذاتي إزاء الإنسان الذي يقدّم لنا عيوبنا وأخطاءنا على طَبَقٍ من محبّة ونصيحة، كشعورنا إزاءه عندما يقدّم لنا حسناتنا ومآثرنا، أو هدية ثمينة من المطعم والملبس أو غير ذلك، في الإحساس بالامتنان، لأنّ قيمة الهدية إنّما تكون بمقدار ما تحلّ للإنسان مشكلة أو تجلب له منفعة على أساس حاجاته الغريزية أو رغباته الذاتية.

ولن يكون هناك أسمى من أن يقدّم له عيوبه التي تشوّه له روحه وتحطّم كرامته من أجل أن يتفادى ذلك فيعيد إلى روحه صفاءها ونقاءها، وإلى كرامته قوّتها وسلامتها.

وربّما نجد بعض ملامح هذا الأسلوب، في الحديث المتقدّم الذي اعتبر المؤمن مرآة أخيه، في الوقت الذي يدعو المؤمن إلى أن يقوم بدور المرآة الداخلية تجاه عيوب أخيه الذاتية كما تقوم المرآة بكشف العيوب الخارجية.

كذلك يوحي للمؤمن الآخر أن يعتبر إخوانه مرآة له، ويتعامل مع نصائحهم وتوجيهاتهم، كما يتعامل مع المرآة فيدعوهم إلى نقد صفاته وأعماله، كما يدعو المرآة إلى كشف أخطاء نظافته وأناقته.

ولا يقتصر هذا الأسلوب على الحديث الشريف بل يتعدّاه إلى الدعاء الذي يدعو به الإنسان ربّه، فنجد في دعاء مكارم الأخلاق للإمام زين العابدين (ع) الفقرة التالية:

«... **ووفّقني لطاعة من سدّدني ومتابعة من أرشدني...**».

فهي تعتبر السير على هدى النقد في عملية التغيير الداخلي والإصلاح العملي حاجة دينيّة وإنسانيّة تحتاج إلى مزيد من توفيق الله ورعايته، مما يجعل الإنسان يحسّ بالرغبة الروحيّة إلى أن يطلب ذلك من ربّه في خشوع العبادة وروحانية الدعاء.

وخلاصة الحديث: إنّ الإسلام يحاول أن يوجّه الناقد والمنقود، إلى أن يواجها عملية النقد بروح واعية مخلصة، ينطلق معها الناقد، ليكتشف أخطاء الآخر بوعي ومحبّة، وينسجم معها المنقود، ليشعر بالامتنان لذلك، وليبدأ عملية التغيير على هذا الأساس.

وأمّا الحالة الثانية: وهي الحالة التي يتّجه فيها النقد إلى التحقير والإيذاء، فتتحول المواجهة إلى أسلوب حاقد يستهدف التحطيم فحسب.

أمّا هذه الحالة، فنجد التشريع الإسلامي يرفضها رفضاً قاطعاً، فلم يُعطِ الإنسان هذا الحقّ ولم يمنحه هذه الحرية.

نجد الإشارة إلى ذلك في الحديثَين المتقدّمَين عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، اللّذين اعتبرا إحصاء الإنسان زلّات أخيه المؤمن بداعي التعيير والتعنيف والإيذاء من أقرب الأشياء إلى الكفر، ومن أبعد الأمور عن الله.

وقد نلمح الإشارة إلى ذلك في جميع الأحاديث التي تشجب إيذاء المؤمن وتحقيره وإذلاله بأيّ أسلوب من الأساليب.

وربّما نتعرّف على ذلك في حديث الإمام جعفر الصادق عليه السلام.

«ومن أنّب مؤمناً أنّبه الله عزّ وجلّ في الدنيا والآخرة».

وفي حديث آخر عنه:

«من عَيَّر مؤمناً بذنب لم يمت حتّى يرتكبه».

وقد يكون السرّ في هذا الرفض، وهذا التشديد، هو تركيز الإسلام على بناء العلاقات الإنسانيّة بين المؤمنين على أساس احترام كرامة الإنسان، لأنّ ذلك هو الذي يخلق عنده الشعور بإنسانيّته وبالتالي: يساهم في حفظ قيمة تلك العلاقات وتنميتها واستمرارها وحيويّتها ودورها الإيجابي في خلق المجتمع الإسلامي

الصحيح الذي يرتكز على قاعدة متينة من المعروف والمحبّة والاحترام المتبادل ورعاية حقوق الجميع.

النقد الغيابي أو الغيبة

هل يحلّ لنا أن نتحدّث عن الناس في غيابهم بما نعرفه عنهم من عيوب ونقائص؟ وهل يختلف الحكم حسب اختلاف الدوافع؟

هذا هو السؤال الثالث الذي يطرح نفسه علينا في محاولتنا لمعرفة الموقف الإسلامي من النقد ـ بمعنى العيب والثلم والتجريح ـ في حالة حصوله في غيبة الإنسان... هذا الذي تصطلح عليه الأحاديث المأثورة وكلمات الفقهاء، باسم الغيبة.

ونحاول استحداث كلمة أخرى تنسجم مع حديثنا هذا، لنصطلح عليه اسم «النقد الغيابي» وسواء جرينا على كلمة الغيبة، أو «النقد الغيابي» فإنّ الحكم واحد، وهو الرفض الحاسم له في القرآن الكريم والسُّنة الشريفة.

ففي القرآن الكريم تواجهنا الآية التي عرضت للغيبة وتحريمها بأسلوب يتحرّك بطريقة رائعة ليثير في النفس القرف والاشمئزاز من الجوّ النفسيّ الذي حاولت الآية أن تضعه فيه.

قال تعالى: ﴿**وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ**﴾[الحجرات: ١٢].

تلك هي الصورة الحقيقية للغيبة.. أن يموت أخوك، وتقف أنت أمام جنازته.. والسكّين في يدك تعمل في كلّ جانب من جوانب جسمه، فتقطع جزءاً من هنا، وجزءاً من هناك.. ثم تبدأ عملية التهام قطع اللّحم الميتة، لحم أخيك.. في نهم الجائع ولذّته.

هل رأيت أبشع من هذه الصورة وأفظع؟

وهل عرفت تعبيراً عن الوحشية والقساوة، أوضح من هذا الإنسان الذي يتحرّك داخل إطارها؟

فإذا ارتفع عندك الإحساس بالفظاعة، والشعور بالبشاعة إلى القمّة.. فتعالَ إلى الصورة المماثلة، ثم انظر.. هل تحسّ معها بنفس الإحساس، أو تشعر بذات الشعور.

إنّها صورة أخيك الغائب عنك، وصورتك ـ أنت ـ عندما تقف أمام حياته بكلّ ما فيها من عيوب ونقائص وأخطاء.. وتبدأ العملية ذاتها في اتجاه آخر.

فالجثّة هي كرامته وسمعته وشخصيّته، والسكين هنا كلماتك التي تقطّع أوصاله تماماً كالسكين.. وتنتهي القصّة هنا، كما انتهت هناك أمام نهم الجائع ولذّة المسعور.

إنّ الصورة هي الصورة مع اختلاف الخطوط والألوان.

فكرامة الإنسان كجسده لها نفس الحرمة، ونفس الحقوق، وبهذا يلتقي نهش الكرامة بنشر العيوب، بنهش الجسد، بالتهام قطع اللحم الميت.

إنّ الصورة هي الصورة، ولكن لماذا لا نشعر بالبشاعة مع هذه كما نشعر ببشاعة تلك؟

ربّما يرجع ذلك إلى أنّنا نتأثّر عادة بالجانب الحيّ المحسوس من الحياة، أكثر ممّا نتأثّر بالجوانب المعنوية، ولذا اعتُبرت الصورة المحسوسة وسيلة من وسائل الإيضاح للصورة غير المرئيّة في الحياة.

أما في الحديث الشريف، فنجد في أحاديث السيرة النبوية، أنّ الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من الأكلة(*) في جوفه».

(*) الأكلة: داء في العضو يأكل منه.

وفي حديث آخر عنه في وصيّته المأثورة لأبي ذرٍّ (رض):

«**يا أبا ذرّ إيّاك والغيبة، فإنّ الغيبة أشدّ من الزنا**، قلت: ولِمَ ذلك يا رسول الله؟

قال: **لأنّ الرجل يزني فيتوب إلى الله فيتوب الله عليه. والغيبة لا تُغفَر حتى يغفرها صاحبها. يا أبا ذرّ: سُباب المسلم فسوق، وقتاله كفر، وأكل لحمه من معاصي الله...**».

ما هي الغيبة

جاء في الحديث عن الرسول الأعظم (ص) ـ جواباً عن سؤال أبي ذرٍّ، ما الغيبة ـ؟

«**إنّها ذِكرُك أخاك بما يكره**».

ويتكرّر السؤال من أبي ذرّ:

فإن كان فيه الذي يذكر به؟

ويجيب الرسول فيما يقول الحديث:

«**إعلم أنّك إذا ذكرته بما هو فيه فقد اغتبته، وإذا ذكرته بما ليس فيه فقد بَهَتَّه**».

وجاء في حديث الإمام جعفر الصادق (ع) قال:

«**إنّ من الغيبة أن تقول في أخيك ما ستره الله عليه، وإنّ من البهتان أن تقول في أخيك ما ليس فيه**».

وعلى ضوء هذين الحديثين الشريفين... نستطيع أن نعرف خطأ الفكرة القائلة: إنّ كلمة الغيبة تعبّر عن الحديث الذي تتحدّث به عن إنسان ما في غيبته بذكر بعض العيوب أو النقائص التي تلصقها به إلصاقاً دون أن يكون لها أساس من الحقّ، أو وجه من وجوه الصدق.

ولعلّ هذه الفكرة الخاطئة عن مفهوم الغيبة هي التي توحي للمغتاب أن يبرّر غيبته بأنّه لا يتكلّم إلا حقّاً، معتقداً أنّ الغيبة تمثّل الحديث الكاذب.

إنّ الحديثين الشريفين يحدّدان لنا مفهوم الغيبة، بالعيب المستور الذي يعيش في واقع حياة الإنسان.

أما العيب الذي ليس فيه، فهو البهتان بعينه.. هذا الذي يجمع بين الكذب من جهة، وإيذاء المؤمن من جهة أخرى.

هل للدوافع السيّئة دور في التحريم؟

ويحاول البعض أن يربط الغيبة بدافع خاصٍّ فيعتبر أنّ للدوافع الذاتية دوراً كبيراً في حرمتها.. فلكي نحكم بحرمتها لا بدّ لنا من أن نلمس النيّة السيئة لدى المغتاب، كإرادة القدح والتشهير والانتقاص.

أما إذا عرفنا خلوّ الحديث من النية السيّئة، وإن لم يكن هناك نيّة حسنة أيضاً، كما إذا كان القصد من الحديث هو ملء الفراغ والتلهّي بأقاصيص الناس وقضاياهم بكلّ ما فيها من خير وشرّ دون أن يكون هناك قصد غيره.. أما إذا عرفنا ذلك فلا مجال للحكم بالحرمة.

ويحاول هذا البعض أن يبرّر هذه الفكرة بالحديث المرويّ عن الإمام عليّ(ع) أنّه قال:

«من قال في مؤمن ما رأت عيناه وسمعته أذناه ممّا يُشينه ويهدم مروءته فهو من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾»[النور: ١٩].

فقد لاحظ أنّ الحديث جعل الغيبة في نطاق حبّ شياع الفاحشة الذي توعّدت عليه الآية بالعذاب والرغبة فيها.. الأمر الذي يعبّر عن النية السيئة في الحديث.

وهكذا نحصل على النتيجة الحاسمة، وهي أنّ الحديث الذي يخلو من ذلك لا تشمله الآية الكريمة.

ولكن هؤلاء أخطأوا فَهم الآية، فهي تعبّر عن فعل ما يوجب شياع الفاحشة، لأنّ المسألة ليست مسألة حالة نفسيّة تتحدّث عن الإنسان من خلال دوافعه ونواياه لتصنّف الناس إلى صنفَين: صنف يعيش دوافع الخير في تصرّفاته مع الآخرين، وصنف يعيش دوافع الشرّ في علاقاته معهم.. بل المسألة مسألة حالة اجتماعيّة يراد منها حماية الإنسان من اعتداء الآخرين على حياته الداخلية، بفضح أسرارها، وكشف ما فيها من نقاط الضعف، ومواطن النقص، كما يقصد بها حماية المجتمع من أجواء الفحش والسوء والضعف التي تثيرها أحاديث المنكر والفحشاء التي تتحدّث عن فضائح الآخرين وجرائمهم ممّا يسبّب خلق الأرضيّة الصالحة لهذه البذور في حياة المجتمع، وإذا كانت القضية كما عرضناها، فلا يعود للقصد أيّ دور في هذا الموضوع إلا من حيث اعتباره أحد العناصر التي تهيّئ لمثل هذه الأحاديث، تماماً كبقيّة الأسباب التي تدعو لها، مثل الرغبة في ملء الفراغ بما يتيسّر من الحديث أيّاً كان لونه وطبيعته، كما يحدث للكثيرين الذين يفقدون العمل الجديّ الذي يملأ أوقاتهم، فيعمدون إلى إضاعة الوقت بأيّ شيء دون التفات إلى نوعيّته، فقد تكون المصادفة أن يحفظ هذا الإنسان أحاديث الآخرين التي تتعلّق بأسرارهم وعيوبهم فيحدِّث بها لأنها الحديث الجاهز لديه لا لأهمية خاصة، أو لرغبة معينة، ولذا، فلا مانع عنده من أن يتحدّث بحديث آخر بعيداً عن هذا الموضوع أو قريب إليه ولكن بلون آخر يصوّر فيه حسنات الآخرين وأعمالهم الخيّرة كما يقول الشاعر:

«يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرماً»

وهكذا نجد أنَّ النقد الغيابي لا ينطلق من مبدأ إرادة التحقير والتشهير والإهانة،

بل يتمثّل في مجرّد ذكر العيب، والتحدّث عن مواطن الضعف التي يكره الإنسان ظهورها وشياعها سواء كان الدافع إليها سيّئاً أو لم يكن.

إنّ القضية أولاً وأخيراً هي إرادة المحافظة على كرامة الإنسان من أن تُهدر، وسمعته من أن تُحطّم، وأسراره من أن تُجعَل عرضةً للامتهان، بدافع العبث أو اللّغو أو غيرهما.

إنّ الإسلام لا يريد لحياة الإنسان الخاصة أن تخضع لمزاج الآخرين وحاجتهم للتنفيس عمّا في داخلهم من كبت، أو في حياتهم من فراغ وحرمان، ولذا حرّم كلّ عدوان عليها بالكلمة أو بالعمل... وذلك هو سرّ تحريم الغيبة فيما نظن.

الحالات الاستثنائية للتحريم

متى يمكن اعتبار التشهير ونشر عيوب الناس عملاً شرعياً أو اخلاقيّاً؟

وبتعبير أدقّ: هل هناك حالات استثنائية يحلّ فيها للإنسان غيبة الآخرين؟

هذا هو السؤال الرابع الذي نواجهه ونحن نعالج النقد في نطاق التجريح.. وربّما نجد المبرّر لهذا السؤال في الحالات الكثيرة التي تواجهنا بشدّة في أكثر من موقف، فتفرض علينا التحدّث عن عيوب الآخرين ونقاط ضعفهم من أجل قضايا حيوية جداً لا يمكن للفرد أو المجموع إغفالها وإهمالها في قليل أو كثير.. لأنّ ذلك يضرّ بالمصلحة العامة للناس، ويؤدّي إلى انحرافات واسعة في حياتهم.

فماذا نفعل إزاء هذه الحالات؟

هل ندعو الإنسان إلى أن يمسك عن الخوض في حديث الناس، وليكن ما يكون، وليحدث ما يحدث؟ أو نطلق له الحرية فيما يتحدّث عنه، وفيما ينقده في نطاق القضايا التي تواجهنا في الطريق وإن كان في ذلك تشهير بالآخرين وإساءة لكرامتهم.

لا يمكن أن نختار الحلّ الأوّل، معنى ذلك جمود التشريع أمام الحالات الصعبة وفقدانه القدرة على الحركة في معالجة مشاكل الآخرين، الأمر الذي يجعله بعيداً عن حياة الناس متعسّفاً في حلوله العملية.. وهذا ما لا ينسجم مع دور التشريع الأساسي، وهو الأخذ بحياة الناس إلى أهدافه بِيُسرٍ وسهولة، فلا يشعر الإنسان معه بالحرج والضيق، ولا يجد حاجة حياتية تضطرّه إلى التمرّد عليه تحت ضغط المطالب الملحّة التي تجابهه في حياته، وإنما يشعر بدلاً من ذلك بالراحة والطمأنينة إلى شريعته لأنّها انطلقت من الواقع كما هو، ولم تنطلق من المثالية والخيال.

ولا يمكن للتشريع الذي ارتكز على أساس فهم الواقع ووعي جذوره إلا أن تستريح له الحياة ويستجيب له الناس في محبّة وواقعية دون حاجة إلى الشكوى منه أو الانحراف عنه.

وعلى ضوء هذا.. فلا بدّ للإسلام، الذي جاء من أجل أن يرفع مستوى حياة الإنسان على أساس واقعي، أن يكون تشريعه منسجماً مع هذه الخطّة وسائراً في هذا الاتجاه، فلا يمكن له ـ والحالة هذه ـ أن يحرّم علينا غيبة الآخرين أو نقدهم في غيابهم عندما تمسّ الحاجة إلى ذلك أو تدعو المصلحة إليه، لأنّ في هذا التحريم ابتعاداً عن علاج مشكلة الحاجة الملحّة، أو مراعاة المصلحة اللازمة.. وبالتالي يؤدي إلى إيقاع الإنسان في الحرج الشديد الذي نفاه الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ...﴾[الحج: ٧٨].

ولهذا فمن الطبيعي أن نختار الحلّ الثاني: وهو اعتبار الغيبة في القضايا الحيّة التي تمسّ حياة الإنسان في الصميم، خارجة عن نطاق التحريم، فلا حرج علينا في الحديث عن عيوب الناس في تلك الحالة، أمام الله وإن أدّى ذلك إلى التشهير والتحقير.

أمّا الحالات الاستثنائية للتحريم فقد ذكر الفقهاء بعضاً منها في كتبهم الفقهية

وأفتوا بحليّتها انطلاقاً من الأدلّة الشرعية من الكتاب والسُّنة.

١ ـ المتجاهر بالفسق، وهو الذي يرتكب المعاصي جهاراً دون أن يحاول التستّر فيها، فلا حرج علينا في غيبته، لأنّ تجاهره بالتمرّد على الله يفقده حقّه في احترام حياته ما دام لم يحترم ربّه.

وقد جاء في الحديث الشريف عن الإمام الصادق (ع) قال:

«إذا جاهر الفاسق بفسقه فلا حرمه له ولا غيبة».

وربّما يرى البعض خروج هذه الحالة عن الغيبة أساساً، لأنها تمثّل ذكر العيب المستور، والتجاهر يتنافى مع الستر.

٢ ـ الظالم لغيره، فيجوز للمظلوم غيبته.. وذلك، لقوله تعالى:

﴿لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً عَلِيماً﴾[النساء: ١٤٨] وقد نجد في بعض النصوص الدينيّة اعتبار إساءة ضيافة الضيف ظلماً له ومبرراً للتحدّث عنه.

فقد جاء في تفسير العياشي عن الإمام جعفر الصادق (ع) حول الآية المتقدّمة، قال:

«من أضاف قوماً فأساء ضيافتهم فهو ممّن ظلم فلا جناح عليهم فيما قالوا فيه».

ولعلّ السبب في ذلك، هو أنّنا لو منعنا المظلوم من التحدّث عن ظلمه لأغلقنا عليه باب الانتصار لنفسه، أو الأخذ بحقّه من ظالمه.. وفي ذلك حرجٌ كبير عليه من جهة، وظلمٌ له من جهة أخرى..

ثم.. إنّ السلبية في هذا الجانب تقتضينا احترام الظالم في ظلمه وتشجيعه عليه، وهذا منافٍ لسماحة الإسلام وعدله وانطلاقه في إثارة الحرب ضدّ الظلم والظالمين.

وقد جاءت الآية الكريمة التي توضح هذا المعنى ـ بالإضافة إلى الآية السابقة ـ:

﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[الشورى: ٤١ ـ ٤٢].

٣ ـ نَصْحُ المؤمن.. فتجوز الغيبة بقصد النصح فيها إذا توقّفت النصيحة عليها، كما إذا استشار إنسانٌ إنساناً في تزويج امرأة أو في شراكة شخص، أو الارتباط به في أيّ جانب من جوانب الارتباط، ولم يكن للمستشير مصلحة في ذلك، لِنقصٍ في المرأة يعقّد له حياته، أو عيب في الشريك يُفسد ماله، أو مفسدة، في هذا الارتباط أو ذلك.. فإنّنا ـ في هذه الحالة ـ نستطيع التحدّث عن ذلك ـ لو لم يكن هناك مجال آخر ـ وإن لزم منه إظهار عيوب هؤلاء بل لا يبعد جواز ذلك ـ في نظر بعض الفقهاء ـ ابتداءً بدون طلب أو استشارة إذا علمنا بترتّب مفسدة كبيرة على ترك النصيحة.

ولعلّ الأساس في هذه الفتوى هو الأخبار الكثيرة التي تدلّ على لزوم النصيحة للمؤمن، وقد تقدّم بعضها فيما قدّمنا من حديث.

٤ ـ إذا قصد المتحدّث بالغيبة ردع المغتاب عن المنكر فيما إذا لم يمكن الردع بغير ذلك. فإذا علمنا أنّ شخصاً يشرب الخمر أو يسرق الناس مثلاً، وكان متستّراً في ذلك، ولم نستطع ردعه عن الجريمة أو المعصية إلا بالتشهير به والتحدّث عنه بذلك أمام الناس، لأنّ ذلك يشقّ عليه، فيتركه ليستردّ كرامته ويحفظ نفسه.. فيجوز اغتيابه بل قد يجب، لما دلّ على وجوب النهي عن المنكر بأيّ أسلوب من الأساليب الممكنة.

٥ ـ إذا خيف على الدين أو الوطن من الشخص المغتاب فيجوز غيبته دفعاً لهذا الضرر، وذلك في الحالات التي نعلم فيها بإنسان يتجسّس لمصلحة العدو،

أو يدعو إلى أفكار مبتدَعة أو نحو ذلك ممّا يضرّ بالدين أو الوطن، فإنّه يجوز لنا أن نعمد إلى كلّ أساليب التشهير التي تُفقدهم الثّقة والاحترام لدى الناس، فيبطل بذلك أثرهم في الحياة الاجتماعيّة.

أما الأساس في هذا الحكم الشرعي، فهو أهمّية دفع الضرر عن الدين أو الوطن، من الإضرار بسمعة إنسان مبتدع أو جاسوس وفضحه بين الناس.. وهذه قاعدة عامة يذكرها علماء الأصول.. وهي أنّ كلّ حالة من الحالات التي يتزاحم فيها حُكمان متنافيان لا يقدر المكلّف على امتثالهما معاً، فيرجّح ما كانت المصلحة فيه أهم في الواجبات، أو ما كانت للمفسدة فيه أعظم من المحرّمات.

وقد نستفيد ذلك من الحديث النبوي الذي نقله الإمام جعفر الصادق (ع):

قال رسول الله (ص): «إذا رأيتم أهل الريب والبدع من بعدي فأظهروا البراءة منهم وأكثروا من سبّهم والقول فيهم والوقيعه وباهتوهم كيلا يطمعوا (أو يطغَوا) في الفساد في الإسلام ويحذرهم الناس ولا يتعلّموا من بدعهم يكتب الله لكم بذلك الحسنات ويرفع لكم به الدرجات».

٦ ـ إذا كان هناك خوف على حياة الشخص الذي تغتابه، أو كان هناك ضرر كبير لا تستطيع دفعه عنه إلا بالتشهير به، فإنّه يجوز لنا اغتيابه حفظاً لنفسه فإنّ مصلحة حفظ النفس أعظم من مفسدة الغيبة.

٧ ـ جرح الشهود.. فإذا كانت هناك دعوى قضائية، وجاء المدّعي بشهود فاسقين لا يُعرف فسقهم، فيجوز لمن يعرف ذلك عنهم أن يذكر ذلك عنهم لِئَلا يقضي الحاكم بشهادتهم «فإنّ الإجماع دلّ على جوازه، ولأنّ مصلحة عدم الحكم بشهادة الفسّاق أولى من الستر على الفاسق ومثله بل أولى بالجواز جرح الرواة فإن مفسدة العمل برواية الفاسق أعظم من مفسدة شهادته ويلحق بذلك الشهادة بالزنا وغيره لإقامة الحدود».

٨ ـ ردّ من ادّعى نَسَباً ليس له.. فإنّ مصلحة حفظ الأنساب أَولى من مراعاة حرمة المغتاب.

٩ ـ نقد آراء الآخرين، وإن استلزم ذلك نقصاً في أصحابها كسوء الفهم وغيره، إذا توقّف حفظ الحقّ وإضاعة الباطل عليه(*).

ويحاول الشيخ مرتضى الأنصاري ـ أحد العلماء الكبار في الفقه والأصول ـ أن يعفينا من تعداد الحالات الاستثنائية، فيرسم لنا القاعدة الكليّة التي يلزمنا مراعاتها في كلّ حالة لنعرف مورد الحلال من الحرام فيقول ـ في كتاب المكاسب المحرّمة:

«إنَّ المستفاد من الأخبار المتقدّمة وغيرها أنّ حرمة الغيبة لأجل انتقاص المؤمن أو تأذّيه منه، فإذا فرض هناك مصلحة راجعة إلى المغتاب الذي يحدّث بالغيبة أو الذي يُتحدّث عنه، أو إلى شخص دلّ العقل والشرع على كونها أعظم من مصلحة احترام المؤمن بترك ذلك القول فيه وجب كون الحكم على طبق أقوى المصلحتَين كما هو الحال في كلّ معصية من حقوق الله وحقوق الناس.

ولهذا، فإنَّ الضابط في الرّخصة وجود مصلحة غالبة على مفسدة هتك احترام المؤمن، وهذا يختلف باختلاف تلك المصالح ومراتب مفسدة هتك المؤمن، فإنَّها متدرّجة في القوّة والضعف، فرُبّ مؤمن لا يساوي عرضه شيئاً من المصالح، فالواجب التحرّي في الترجيح بين المصلحة والمفسدة»(**).

وهكذا، نعرف ـ مرونة الإسلام في التشريع، فإذا كان التشريع منطلقاً من مصلحة الإنسان في الحياة، فلا بدّ أن تلاحق الشريعة المصلحة أين كانت، فلا تتجمّد أمام حالة من الحالات، بل تنطلق في حياة الإنسان خيراً وسلاماً وبركة من أجل أن يعيش الإنسان حياته في راحة وطُمأنينة وكرامة بين يدي الله في الدنيا قبل الآخرة.

(*) المكاسب: للشيخ مرتضى الأنصاري ص ٤٥.

(**) المصدر السابق ص ٤٦.

النقد في نطاق تقييم الآخرين

هذا هو الوجه الآخر للنقد، الذي نواجه معه الحاجة الملحّة إلى التطلّع في حياة الناس من أجل الوصول إلى فهم دقيق واسع لها، ومعرفة عميقة لهم، ليكون تعاملنا معهم على أساس واضح متين، لا ينطلق من النظرة الساذجة، ولا يخضع للحكم السريع، ولنحصل ـ من خلال ذلك ـ على معرفة صحيحة للمجتمعات التي نعيش فيها، ونتحرّك معها.. فإنّ دراسة طبيعة الأفراد الذين يتألّف منهم المجتمع هو السبيل الأمثل للحركة الواعية في الحياة، لأنّ أيّ حركة لا تخضع للحسابات الدقيقة لأجواء العمل وأشخاصه وأوضاعه، لا يمكن أن تسير في الاتجاه السليم أو تنتهي إلى أهدافها بسلام.

وقد لاحظنا في الكثير من النصوص في هذا المجال.. فنجد بعضها يتّجه إلى الحديث عن النماذج البشرية التي تبدو في مظهر معيّن يوحي بالثّقة، ويبعث على الاطمئنان ولكنّها لا تلبث أن تنكشف عن موقف مضادٍّ تماماً، أمام التجربة الحاسمة التي تكشف عن الخفايا الدفينة في النفس، وتعبّر عن الصّفة الحقيقية التي لم تستطع الاختباء طويلاً أمام المظاهر الخادعة.

ونجد بعضها يتّجه اتجاهاً آخر.. فيحاول تفسير كثير من المظاهر الطيّبة بأكثر من وجه.. الأمر الذي لا يجعلها معبّرة تعبيراً حاسماً عن المعاني الطيّبة، ما دامت تلتقي مع المعنى الخبيث في بعض الحالات، ومع المعنى الطيّب في بعضها الآخر.

النقد أمام النماذج المزيّفة من الناس

ففي الأسلوب الأوّل: نلتقي بالآية الكريمة:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾[الحج: ١١].

فهي تصوّر لنا بعض النماذج الحيّة التي لا يتمثّل الإيمان في حياتها إلا من خلال الحياة الطيّبة الرخيّة التي يسير معها الإنسان.. فما دام الإيمان لا يقترب في مسؤوليّاته وفي نتائجه مع هذه الحياة.. فليس هناك ما يوجب التنازل عنه، وليس لديه ما يمنع من السير معه.

أمّا إذا جاءت التجربة من خلال مواجهة الإيمان ـ المسؤوليّة، فاقترب الإيمان من الحياة ليثير فيها المشاكل، وليخلق لها المتاعب، وليبعث معها بعضاً من الخسائر وبعضاً من الآلام.

أمّا إذا حاولت الفتنة أن تمتحن هذا الإيمان، أو تختبر حقيقة هذا الإنسان فلا يبقى هناك إيمان ولا مؤمنون، بل هو الانقلاب على الأعقاب والخسران المبين الذي يلاحق الإنسان معه مصالحه وملذّاته بعيداً عن الإيمان ومسؤوليّاته، والحقّ ومتاعبه.

إنّ هذه الصورة الحيّة تثير في أنفسنا الوعي نحو الأشخاص الذين نلتقيهم فلا ننخدع بمظاهر الإيمان، ولا نحكم عليهم بمجرّد ذلك قبل أن ننطلق بعيداً مع التجربة الواعية التي تنقد كلّ عمل نقداً عميقاً حتّى تنفذ إلى داخله لتكتشف ما فيه من حقيقة وأصالة.

ونلتقي ـ مع هذا الأسلوب ـ بالآيات التالية:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٦].

ففي هذه الآيات نجد صورة الإنسان الذي يستخدم فصاحته وبلاغته في إغراء الناس بالوعود المعسولة، والأحلام الجميلة مستعيناً بالأَيْمَان المغلّظة، شاهداً على ما في قلبه، بكلّ حرارة واندفاع، حتى إذا وصل إلى غايته، وحصل على

هدفه، تكشّفت نفسه عن دخائلها الخبيثة، وانطلق يعبث ويفسد في عباد الله وبلاده، دون أن يُلقي بالاً إلى موعظةٍ أو تحذير أو تذكير، بل تأخذه العزّة بالإثم فيرى نفسه فوق الموعظة والواعظين.

إنّ هذه الصورة تضع أيدينا على كثير من النماذج البشرية التي نلتقي بها على مستوى السياسة أو الدين أو الاجتماع، فتثير في نفوسنا الشكّ في وعودها وفي أقوالها مع الآخرين، بل لتخلق فينا طبيعة الحذر والبحث عن الأسس المتينة التي تبعث على الثّقة وتوحي بالاطمئنان بعيداً عن كلّ مظهر خادع أو كلام ساذج.

أما قيمة هذا الأسلوب الذي يتمثّل في الآيات الكريمة المتقدّمة، فهي في إعطاء الشواهد الحيّة من الحياة على خطأ الأُسس النقدية التي ينطلق معها الناس في تقييم الآخرين فيسيئون ـ من خلال ذلك ـ إلى أنفسهم وإلى الحياة.. ومن ثَمَّ يتّجه إلى توجيه الإنسان إلى النقد الواعي المرتكز على الأسس التي تبتعد عن الانحراف والخطأ في أكثر الحالات.

النقد أمام المظاهر الخادعة في الحياة

وأمّا الأسلوب الثاني، الذي يحاول تفسير المظاهر الطيّبة بأكثر من معنى ليثير الحذر أمامها قبل التسرّع بإصدار الحكم على أساسها، فنلتقي فيه ببعض النصوص الدينيّة المأثورة عن بعض أئمّة أهل البيت عليهم السلام:

ففي الحديث عن الإمام عليّ (ع) ويُروى أيضاً عن النبي محمّد (ص) قال:

«لا تنظروا إلى كثرة صلاتهم وصيامهم وكثرة الحجّ والمعروف وطنطنتهم بالليل، انظروا إلى صدق الحديث وأداء الأمانة».

وفي حديث آخر عن الإمام جعفر الصادق (ع):

«لا تغترّوا بكثرة صلاتهم ولا بصيامهم فإنّ الرجل ربّما لهج بالصلاة والصوم

حتى لو تركه استوحش ولكن اختبروهم بصدق الحديث وأداء الأمانة».

ففي هذين الحديثَين نجد الرفض الحاسم للمقياس المعروف لدى الناس في تقييم إيمان الشخص ودينه، انطلاقاً من كثرة الصلاة والصوم وممارسته الدائمة لبقية الأعمال العبادية وإقباله على المعروف وأعمال الخير.

أما السبب في هذا الرفض، فهو خضوع كثير من هذه الأعمال إلى العادة التي نشأ عليها هذا الإنسان، فهو ينطلق من الشعور بالألفة معها، وبالوحشة في حال تركها، لا من أساس دينيّ عميق من الإيمان والإخلاص، فهي لا تعبّر عن الجذور الأصيلة في الداخل، ولذلك فإنّها لا تصلح أساساً للتقويم وللاختبار، بل لا بدّ من اتّباع مقياس آخر لا يُخطئ في أغلب الحالات، وهو الصدق والأمانة، لأنّهما ينطلقان من جذور الارتباط بالحقّ لا سيّما إذا كانا ضد مصلحة الإنسان المادية.

الإمام زين العابدين يخطّط للنقد

ونلتقي ـ مع هذا الأسلوب ـ بحديثٍ آخر عن الإمام عليّ بن الحسين زين العابدين (ع):

«إذا رأيتم الرجل قد حسن سَمْتَه وتمادى في منطقه وتخاضع في حركاته، فرويداً لا يغرنّكم، فما أكثر من يعجزه تناول الدنيا وركوب الحرام منها لضعف نيّته ومهانته وجبن قلبه فنصب الدنيا فخاً لها، فهو لا يزال يختلّ الناس بظاهره فإن تمكّن من حرام اقتحمه وإذا وجدتموه يعفّ عن المال الحرام فرويداً لا يغرنّكم فإنّ شهوات الخلق مختلفة فما أكثر من يتأبّى عن الحرام، وإن كثر، ويحمل نفسه على شوهاء قبيحة فيأتي منها محرماً. فإذا رأيتموه كذلك فرويداً لا يَغُرنّكم حتّى تنظروا عقدة عقله فما أكثر من ترك ذلك أجمع.. ثم لا يرجع إلى عقل متين فيكون ما يفسده بجهله أكثر ممّا يصلحه بعقله. فإذا وجدتم عقله متيناً فرويداً

لا يَغُرّنّكم حتى تنظروا ليكون هواه على عقله، أم يكون عقله على هواه، وكيف محبّته للرياسات الباطلة وزهده فيها، فإنّ في الناس من يترك الدّنيا للدّنيا، ويرى أنّ لذّة الرياسة الباطلة أفضل من رياسة الأموال والنعم المباحة المحلّلة فيترك ذلك أجمع طلباً للرياسة، إذا قيل له: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[البقرة: ٢٠٦]، فهو يخبط عشواء، يقوده أوّل باطله إلى أبعد غايات الخسارة، ويمدّ به بعد طلبه لما لا يقدر في طغيانه، فهو يحلُّ ما حرّم الله، ويحرّم ما أحلَّ الله، لا يبالي ما فات من دينه، إذا سُلّمت له الرياسة التي قد شقي من أجلها. فأولئك الذين غضب الله عليهم وأعدّ لهم عذاباً أليماً.

ولكنّ الرجل كلّ الرجل الذي جعل هواه تَبَعاً لأمر الله وقواه مبذولة في قضاء الله يرى الذلّ مع الحقّ أقرب إلى عزّ الأبد مع العزّ في الباطل، ويعلم أنّ قليل ما يحتمله من ضرّائها يؤدّيه إلى دوام النعيم في دار لا تبيد ولا تنفد، وإنّ كثيراً ممّا يلحقه من سرّائها إن اتّبع هواه يؤدّيه إلى عذاب لا انقطاع له ولا زوال، فذلك الرجل فتمسّكوا به واقتدوا بسنّته وإلى ربّكم توسلوا به فإنّه لا تُردُّ له دعوة ولا يخيب في طلبه».

ففي هذا الحديث تحليل دقيق للدوافع المتنوّعة التي تختفي خلف المظاهر الطيّبة للإنسان، ومحاولة بارعة لتخطيط الأسس النقدية التي يرتكز عليها الحكم على طبيعة الأشخاص، وذلك بملاحقة جميع هذه الدوافع والانتقال من بعضها إلى البعض الآخر حتى يستنفدها بأجمعها، ليخرج ـ بعد ذلك ـ بالحكم الصحيح المستند إلى محاكمة واسعة دقيقة، وتحليل بارع عميق.

ولعلّ ذلك كلّه يرجع إلى أنّ الإسلام يريد للإنسان أن يبتعد عن السذاجة والسطحيّة في نظرته إلى الناس وتقييمه لهم، لأنّ ذلك يسيء إلى طبيعة علاقاته العملية بهم، وإلى فهمه للجوّ الذي يعيش فيه، ممّا يجعله يعيش الفوضى

والارتباك في حياته، وحياة الآخرين، بما تفرضه السذاجة من تأييد لمن يستحقّ الرفض وتعاطف مع بعض المواقف التي لا تنسجم مع مصلحة الأمّة ومستقبلها في جميع جوانب الحياة العامة والخاصة:

«وسلبتني مناجاتك إذا أنا ناجيتك وما لي كلّما قلت قد صلحت سريرتي وقرب من مجالس التوابين مجلسي عرضت لي بليّة أزالت قدمي وحالت بيني وبين خدمتك.

سيّدي: لعلّك عن بابك طردتني، وعن خدمتك نحّيتني، أو لعلّك رأيتني مستخفّاً بحقّك فأقصيتني، أو لعلّك رأيتني معرضاً عنك فقليتني، أو لعلّك وجدتني في مقام الكاذبين فرفضتني، أو لعلّك رأيتني غير شاكر لنعمائك فحرمتني، أو لعلّك فقدتني من مجالس العلماء فخذلتني، أو لعلّك رأيتني في الغافلين فمِن رحمتك آيستني أو لعلّك رأيتني آلف مجالس البطّالين فبيني وبينهم خلّيتني، أو لعلّك لم تحب أن تسمع دعائي فباعدتني، أو لعلّك بجرمي وجريرتني كافيتني، أو لعلّك بقِلّة حيائي منك جازيتني».

فنحن نجد في هذه الفقرات أنّ الإنسان يجابه موقفاً داخلياً روحيّاً، وهي أنّه لا يحاول الاقتراب من الله بالصلاة والمناجاة، إلاّ ويجد المعوّقات أمامه من الكسل والنعاس وفقدان الروح التي تتّصل بالله بخشوع.

ثم نلتقي بموقف آخر يستسلم فيه الإنسان إلى رغبة ذاتية بالنظافة الروحيّة من الداخل بإصلاح السريرة، والتوبة إلى الله من كلّ قلبه،.. ولكنه يجد المزالق أمامه في الطريق لتنحرف به عن القصد، ويواجه العقبات التي تَحُول بينه وبين الانطلاق بعيداً في اتجاه الخير وإصلاح النفس.

إنّه يواجه هاتين الحالتين، ويحاول أن يبحث لهما عن تفسير يبرّرهما، ليعرف أين تكمن المشكلة، فيعرف أين يكون الحلّ.

وهنا يبدأ عملية استعراض جميع الجوانب التي تصرف الإنسان عن الخير وتَحُول بينه وبين ربّه.. ليحلّلها تحليلاً دقيقاً ويحاكم هذا الواقع من خلالها، لينتهي إلى النتيجة الحاسمة التي تتمثّل في بَدْء عملية التصحيح من خلال الجذور العميقة التي تتّصل بالمشكلة.

ولعلّ هذه الطريقة هي أفضل الطرق التي يعتمد عليها أسلوب النقد الذاتي، لأنّها ترتكز على الاستقراء الكامل الذي لا يترك جانباً يرتبط به الواقع أو تتّصل به الظاهرة، إلاّ ويحاول إبرازه بوضوح.

وربّما يجد الباحث الكثير من هذه النماذج في الأدعية المأثورة التي يتحوّل فيها الإنسان إلى ناقد واع ينقد نفسه وحياته بين يدي الله، بكلّ إخلاص وروحانية وخشوع.

وقد أفاض علماء الأخلاق الإسلاميون في الحديث في موضوع النقد الذاتي تحت عنوان محاسبة النفس، ومراقبتها، وتركوا لنا الكثير من التجارب العملية، والأساليب المتنوّعة، التي تعطي للإنسان نظرة واعية للطريقة التي يمكنه فيها ممارسة هذا المبدأ في حياته ولا بأس بمراجعة كتاب إحياء العلوم للغزالي وجامع السعادات للنراقي وغيرهما من كتب الأخلاق.

النقد الذاتي في الإسلام

أ ـ ما هو النقد الذاتي؟

النقد الذاتي: هو نقد الفرد نفسه، أو نقد الأمّة أو بعض قطاعاتها الاجتماعيّة نفسها.. وذلك، بالتحليل العميق الواعي، من أجل تحديد مواطن النقص، وأسباب العجز والمؤثّرات المؤدّية إلى وجود العيوب والنقائص.

ويتمثّل ذلك في الفرد، في تحليل الدوافع الذاتية للعمل في جهة، وتحديد المؤثّرات الخارجية التي شاركت في اتخاذ هذا الموقف أو ذاك.

فقد يستسلم الإنسان لموقف تأييد لبعض الأشخاص، أو رفض لبعض آخر، وقد يكون هذا الموقف محاطاً ببعض الجوانب الخاصّة من جهة، وببعض الجوانب العامّة من جهة أخرى.

فإذا أراد أن يرفع قيمة عمله من الداخل فبإمكانه تحليل الدوافع الخفية التي شاركت في اندفاعه للعمل، فقد يكتشف الصفة الخاصة، وهو يتخيّل انطلاقه من الصّفة العامة، وقد يكون هذا الموقف واقعاً تحت رحمة مؤثّرات عديدة، ولا يعرف الإنسان السبب الأعمق في التأثير، فيكتشفه بعد التحليل، ليكتشف طبيعة المؤثّرات الخارجية التي تضغط على إرادته.

مثل ذلك في الأمّة، فبتحليل المواقف الكبيرة التي تقفها من الأحداث، أو الأحداث التي تقتحم حياتها الفكريّة والسياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، وتؤدّي بها إلى تقدّم أو تأخّر، وتقودها إلى هزيمة أو انتصار.. فقد تختلط المؤثّرات، وتتشابك الأسباب.. ويأتي دور النقد الذاتي الذي يحلّل ذلك كلّه من خلال تحليل الأفراد المسؤولين أعمالهم، وتحديد المؤثّرات العامّة والخاصّة، وأسباب الربح والخسارة، ومواطن النجاح والفشل.. وللوصول إلى معرفة أعمق، وفهم واسع لطبيعة الموقف وأبعاده..

ب ـ حاجتنا إلى النقد الذاتي

تنبع حاجتنا إلى النقد الذاتي من حاجتنا إلى فهم أنفسنا في أبعادها الداخلية والخارجية، وإلى فهم واقعنا بكلّ ما يشتمل عليه من ظواهر وحركات، فإنّ الإنسان الذي لا يعرف نفسه لا يملك معرفة وجهة حياته، لأنّه لا يدري من أين تنطلق خطاه، وإلى أين تسير.. فهل تنطلق من قاعدة المنفعة الذاتية، أو من واقع الرسالة العامّة؟

وهل تتّجه إلى القمّة أو تنحدر إلى الحضيض؟

فقد يختلط الأمر على الإنسان، فيُخيّل إليه أنّه يسير على أساس الحقّ في

لحظات الانفعال المرتجل، ولكنّه إذا فتش نفسه، اكتشف أنّه يسير على أساس ذاتي محض، لا يتّصل بالحقّ من قريب أو بعيد، لأنّ الدوافع الحقيقية للحركة لا تطفو على سطح، بل تستقرّ في أعماق النفس ودهاليز الشعور، بشكل لا شعوري، فلا تظهر إلا للبحث العميق الذي يفتش ويحلّل ويحاكم.. وتبقى الدوافع تعطي للعمل طابعه الظاهري الذي يخدع الأعيُن التي يُبهرها السراب.

وهكذا قد نجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام الواقع الذي نتخبّط فيه ونعيش في أجوائه سواء أكان واقعاً دينيّاً أو سياسيّاً أو اجتماعيّاً أو اقتصاديّاً، فقد يخضع فهم هذا الواقع لتفسيرات سطحيّة مرتجلة ناشئة عن النظرة الارتجالية التي تستسلم للأسباب القريبة الجاهزة التي تبدو للعين من أوّل نظرة، دون أن تكلّف نفسها عناء البحث عمّا وراء ذلك من أسباب، أو تتعرّف إلى الجوانب البعيدة التي ساهمت في ولادة هذه الظاهرة أو نشوء هذا الواقع.

أمّا خطر ذلك، فيتمثّل في تشويه الصورة الحقيقية للمشكلة في ظلّ الواقع، ممّا يسبّب بُعداً عنها وعن الحلول العملية الصحيحة لها،.. فربّما يكون الداء في جانب، وتكون المعالجة لجانب آخر وربّما ترتبط المشكلة بأكثر من جهة، ويكون الحلّ منطلقاً من جهة واحدة... وهكذا تضيع الخطوط التي يسير عليها الإنسان في الوصول إلى فهم الواقع أو حلّ مشكلته.

ولن يختلف الأمر في هذه الموضوع بين أن يكون الموقف على مستوى واقع الفرد، وبين أن يكون على مستوى واقع المجتمع أو الأمّة بشكل عام، لأن كلاً منهما يرتكز على أساس طبيعة الفهم الحقيقي الذي يشارك في علاج الواقع، أو الفهم الخاطئ الذي يساهم في تعقيده وإرباكه من جديد.

فهناك بعض الحالات التي تعيش فيها الأمّة بعض الهزائم أو الانتصارات، فتحاول دراسة الأسباب التي هيّأت للهزيمة، أو شاركت في النصر.. فإذا انطلقت من خلال

النظرة السطحية التي تحاول أن تنظر إلى الجوانب الظاهرية للأمور كانت النتيجة ابتعاداً عن القضية، وعن الحلّ الصحيح للمشكلة، أو عن الدرس العملي الذي نستفيده منها للمستقبل، فقد نُرجع النصر إلى القوّة الذاتية التي كنّا نملكها في المعرفة ونُغفل بقيّة الأسباب التي قد يكون من بينها الموقف السياسيّ العالمي أو الإقليمي الذي استطاع أن يُعطي بعض الفرص، أو يخلق بعض المؤثرات وستكون النتيجة أنّنا سنعتبر القوّة كلّ شيء، فيخيّل لنا أنّها الأساس الذي ترتبط به معارك المستقبل المماثلة، كما ارتبطت به معارك الماضي، فنتصرّف على هذا الأساس بينما يكون الموقف السياسيّ مختلفاً كلّ الاختلاف عن الموقف في المعركة الماضية.

وربّما يكون للظروف الخاصة الداخلية والخارجية، التي يعيشها العدو المهزوم بعض الأثر في هزيمته.. فإذا لم نُدخلها في حسابنا ـ في حالة تحليل الواقع ـ فستكون النتيجة لمصلحته في الجولة القادمة عندما تتغيّر ظروفه التي ساهمت في انتصارنا أو في هزيمته.

أما في حالة الهزيمة، فقد نُسيء فهم الأسباب التي شاركت فيها، فنُرجع السبب إلى ظروف خارجة عن إرادتنا أو قدرتنا، في محاولة ساذجة للتبرير، تعتمدها الشعوب المهزومة في عملية ساذجة لحفظ ماء الوجه، أو إيحاءً ببقايا الكرامة.

ومن الطبيعي أنّ ذلك سوف يخفي الأسباب الحقيقية التي تكمن في تصرّفاتنا العملية في واقعنا الفكريّ والسياسيّ والاجتماعيّ، فربّما يكون لها أكبر الأثر في ذلك كلّه، دون أن نلتفت إليها أو نحسب لها أقلّ حساب.

ولن نحتاج إلى جهد فكريّ كبير لنفهم أنّ ذلك سوف يكرّس الهزيمة للمستقبل، كما كرّسها للماضي، لأنّنا سوف نظلّ حيث نحن نراوح أقدامنا في مواقع الهزيمة وبدايات الطريق نتطلّع إلى خارج قدراتنا وإرادتنا، بعيداً عن الواقع الداخلي الذي ترقد في أعماقه الهزيمة.

وربّما تتمثّل الحاجة إلى النقد الذاتي في دراسة بعض الأوضاع التي درجنا على ممارستها في شؤون الدين والدنيا، انطلاقاً من عادات قديمة، أو تقاليد مستحكمة، أو نظرة خاطئة تجد في هذه الأوضاع الشاذّة ضماناً لقيم معينة، أو مبادئ كبيرة، وترى أنّ زوال هذه الأوضاع يشكّل خطراً على تلك القيم والمبادئ، كما نراه في الكثيرين الذين يصرّون على إبقاء المظاهر المتخلّفة لبعض الممارسات التي اصطبغت بصبغة دينيّة أو اجتماعيّة، بِحُجّة أنّها هي التي تحفظ للمجتمع عقيدته أو توازنه أو ارتباطه بالقيم، فإذا فقدناها فقدنا هذه الضوابط التي يحتاجها المجتمع في حياته الدينيّة والاجتماعيّة.

ربّما نحتاج إلى النقد الذاتي ـ في هذه الحالة ـ لنعرف كيف نشأت هذه الأوضاع، وكيف انطلقت جذورها لتفرض وجودها على الدين والمجتمع، ثم لندرس تأثيرها العكسي على الواقع الدينيّ أو الاجتماعيّ بما تمثّله من مظاهر التخلّف.. ثم لنتعرّف ـ من خلال فهمنا لواقعنا المعاصر ـ كيف يمكننا الحصول على ضوابط جديدة بعيدة عن التخلّف، لتحفظ للمجتمع عقيدته وتوازنه وتساهم في التوفيق بين طبيعة الوسيلة وبين طبيعة الغاية في مستوى الممارسة.

وهكذا نخلص ـ من خلال هذا العرض الموجز ـ إلى نتيجة حاسمة، وهي أنّ حاجتنا إلى النقد الذاتي، تنبع من حاجتنا الملحّة إلى أن نكتشف في ذواتنا وفي حياتنا، وأقوالنا وأفعالنا مواطن القوّة، ومراكز الضعف، ونتعرّف أسباب ذلك كلّه، لنستطيع تطوير ما يمكن تطويره من مراكز القوّة، وإكمال ما نستطيع إكماله من مواطن النقص، وتقوية ما نقدر على تقويته من حالات الضعف.

وربّما نحتاج إلى النقد الذاتي في الحالات التي يتعرّض فيها الإنسان إلى بعض الأوضاع الاجتماعيّة التي تتضخّم فيها شخصيّته، وترتفع مكانته، بفعل المؤثّرات الخاصّة التي تُعطي الشخص أكثر من قيمته.. فقد يُخيّل إليه ـ في

لحظات الانفعال العاطفي ـ أنّه يملك هذه الشخصيّة، ويرتفع إلى هذا المستوى، فيقع ضحية غرور ذاتي يؤدّي به إلى الهلاك في النهاية.

وربما نشعر بقيمة النَّقد الذاتي في هذه الحالة.. بالنظر إلى أنّه ينفتح به على واقع حياته كما هو، فيلتفت إلى مواهبه، وكفاءاته ليعرف حجم شخصيّته على الطبيعة دون زيادة أو نقصان، لينطلق إلى الحياة من خلال ذاته، لا من خلال الورم الذي يتراكم عليها بلا معنى ودون حساب.

وقد نلمح الدعوة إلى هذه الممارسة في دعاء من أدعيةِ مكارم الأخلاق:

«اللّهم لا ترفعني في الناس درجة إلا حططتني عند نفسه مثلها، ولا تُحدِث لي عزّاً ظاهراً إلا أحدثت لي ذلّة باطنة عند نفسي بقدرها».

فنحن نلاحظ أنّ الدعاء يهدف إلى أن يلتفت الإنسان إلى مواطن الضعف التي تنزل بميزان نفسه إلى واقعها الطبيعيّ بعيداً عن مظاهر الرفعة الظاهرة، لئلاّ يختلّ التوازن في واقع حياته، كما يدعو إلى أَلاَّ تُشغله مظاهر العزّ التي يحصل عليها من خلال نشاطاته ومواهبه عن مواطن النقص التي توحي له باستشعار التواضع والذلّة في نفسه، كنتيجة طبيعية لذلك.

وقد نلمح ذلك فيما يُروى عن الإمام علي (ع) عندما كان يواجهه بعض الناس بالمدح والثناء أنّه كان يقول:

«اللّهم اجعلني خيراً ممّا يظنّون واغفر لي ما لا يعلمون».

فنلاحظ ـ ويتحدّث عليٌّ(ع) بلسان الإنسان ـ أنّ المدح لم يصرفه عن النظر إلى الجوانب الأخرى التي تكمن بعيداً عن نظر الناس في داخل ذاته.

ولن يختلف هذا الأسلوب بين الحالة التي يُخلِص الناس له فيها بالمدح عن

اعتقادٍ بصلاحه وبين الحالة التي يحاولون أن يتزلّفوا إليه، أو يخدعوه عن نفسه، لأنّه ـ في كِلا الحالتين ـ يتعرّض لخطر الغرور الذي يؤدّي به إلى فقدان التوازن في حياته، وهذا ما لا يريده الإسلام.

وقد نجد مثل هذا النموذج في واقع الهيئات والمنظّمات السياسيّة والاجتماعيّة التي تنطلق ـ في البداية ـ نحو أهدافها العمليّة باتزان واستقامة، فيحاول أعداؤها تفجيرها من الداخل، بأسلوب التضخيم المتطرّف لنشاطاتها العاديّة، والتركيز على قيادتها بتسليط الأضواء على شخصيّاتهم بدون ميزان، لينتهي الأمر ـ بعد ذلك ـ إلى الغرور والزهو الفارغ الذي يوحي لها بأنّها فوق مستوى النقد، ممّا يجعلها تعتبر الخطأ صواباً، والانحراف استقامة، والباطل حقاً، دون التفات إلى نقد الناقدين ووعظ الواعظين وإرشاد المرشدين.. الأمر الذي يؤدّي بها إلى الوقوع في الأخطاء الكبيرة التي تجعل مقاتلها باديةً للأعداء دون مقاومة.

إنّ عملية النقد الذاتي ـ في هذه الحالة ـ تمثّل جرس الإنذار إزاء هذا الواقع قبل أن يستفحل ويستعصي على المعالجة، لأنه يكتشف الأزمة قبل أن تتعقّد، ويُرجع القافلة إلى الطريق قبل أن تبتعد كثيراً في صحارى التّيه.

ولذا فإنّ القضية ليست قضيّة نظريّة جامدة تعيش في متاحف النظريّات، بل هي قضيّةٌ عمليّةٌ يواجه فيها الفرد أو الأمة، الواقع الحيّ على الطبيعة مجرّداً عن كلّ خيال وانفعال، من أجل التعرّف عليه من جميع جوانبه، والعمل على دفعه نحو التقدّم في اتجاه المستقبل.

موقف الإسلام من النقد الذاتي

عندما نقترب من النصوص الدينيّة التي عالجت موضوع النقد الذاتي، ودعت إليه، نلاحظ أنّها بدأت في إيجاد الجوّ الداخلي له.

ولعلّ ذلك يُعتبر من الأمور الضرورية في هذا المجال، لأنّ من غير الطبيعي أن يمارس الإنسان عمليّة النقد في الأجواء الذاتية التي يشعر معها بالكمال النفسيّ الذي يتمرّد على النقص، ويعلو على النقد.

وعلى هذا الأساس، جاءت الآيات الكريمة التي توحي للإنسان بأنّه ليس فوق مستوى الشبهات، فهناك مواطن ضعف كثيرة تعيش في داخل نفسه وتقتحم عليه حياته.. وهذا ما تعبّر عنه الآية الكريمة في سورة يوسف:

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نفسيّ إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[يوسف: ٥٣].

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾[النجم: ٣٢].

فقد نستطيع أن نفهم من هاتين الآيتين أنّ الإسلام لا يوافق على منح النفس الحكم بالبراءة من كلّ سوءٍ، ما دامت النوازع الداخلية تثير في الإنسان معاني السوء والشرّ والضلال، وما دام الإنسان يستجيب لها في بعض الحالات، فكيف يمكن له أن يزكّيها ويدّعي لها العصمة من كلّ نقص والسلامة من كلّ سوء.

وقد حاولت بعض الآيات أن تشير إلى بعض مواطن الضعف في الإنسان بشكل صريح من أجل أن يلتفت الإنسان إلى ذلك فيحاول تحليل بقيّة مواقفه وأعماله على ضوء ذلك ويعمل على محاكمتها في هذا الاتجاه.

وذلك كقوله تعالى:

﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾[الأنبياء: ٣٧].

وقوله تعالى:

﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾[الإسراء: ١١].

وقوله سبحانه:

﴿يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾[النساء: ٢٨].

ثم انطلقت الآيات الكريمة لتواجه الإنسان بمسؤوليّته في أعماله أمام الله سواء أكان العمل صغيراً أم كبيراً، لتثير في نفسه الشعور العميق بالحاجة إلى القيام بدور المحاسبة الدقيقة التي تفصل بين العمل الصالح وبين العمل غير الصالح.

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾[النحل: ١١١].

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾[الصافات: ٢٤].

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾[الكهف: ٤٩].

ثم تنطلق الدعوة إلى النقد والتأمّل والتفكير فيما عمل الإنسان، وفيما قدّم، لإجراء كشف دقيق على جميع أعماله وأقواله في الدنيا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[الحشر: ١٨].

إنّ هذه الآيات تحاول أن تهيّئ الجوّ النفسيّ للقيام بهذا الدور تجاه نفسه، ليعرف كيف يواجه الله بصدق وإيمان.

وعندما نقترب من النصوص الدينيّة في نطاق الحديث النبوي الشريف، وأحاديث أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) نجد الدعوة إلى المحاسبة والنقد الذاتي، واضحة صريحة مؤكّدة.

ففي الحديث النبوي الشريف:

«حسابوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا وزنوها قبل أن توزَنوا»..

وفي حديث نبويّ آخر، في وصيّته المأثورة عنه، لأبي ذرّ:

«يا أبا ذرّ: لا يكون الرجل من المتّقين حتى يحاسب نفسه أشدّ من محاسبة الشريك شريكه، فيعلم من أين مطعمه، ومن أين مشربه، ومن أين ملبسه، أمِن حلال أو مِن حرام؟».

ويروى عن الإمام عليّ (ع) أنّ النبيّ (ص) قال:

«أكيَس الكيّسِين من حاسب نفسه وعمل لما بعد الموت».

فقال رجل للإمام: يا أمير المؤمنين كيف يحاسب نفسه؟

قال: **إذا أصبح وأمسى رجع إلى نفسه وقال: يا نفسي إنّ هذا يوم مضى عليك لا يعود إليك أبداً والله يسألك عنه بما أفنيته.**

فما الذي عملتِ فيه؟ أذكرتِ الله أم حمدتِه؟

أقضيتِ حوائج مؤمن فيه، أنفّستِ عنه كربة، أحفظتِه بظهر الغيب في أهله وولده؟

أحفظتِه بعد الموت في مخلّفيه؟

أكففتِ عن غيبة أخٍ مؤمن، أأعنتِ مسلماً؟

ما الذي صنعتِ فيه؟».

فيذكر ما كان منه، فإن ذكر أنّه جرى منه خير حمد الله وكبّره على توفيقه، وإن ذكر معصية، أو تقصيراً استغفر الله وعزم على ترك معاودته.

ونلاحظ ـ في هذا الحديث ـ أنّه يطرح نموذجاً لعملية المحاسبة، ليكون أسلوباً يمارسه الشخص في العمل، فقد يكون الموضوع الذي يواجه عملية الحساب فيه، ماذا عمل؟ ليكون التحليل لمفردات العمل الذي صدر منه. أمّا إذا كان الموضوع هو دوافع العمل، فلا بدّ أن تكون النتيجة في الجواب تحديد النوازع الذاتية التي انطلق منها العمل.. وربّما تكون القضية قضيّة موقف خاطئ صدر منه أو شارك فيه، فينطلق السؤال في مواجهة المؤثّرات التي شاركت في الخطأ من قِبَلِه أو من قِبَل غيره.

وعلى أيّ حالٍ، فليس الإمام في معرض التحديد لطريقة المحاسبة، ونوعية النقد، بل هو في مجال إعطاء النموذج لذلك، ليسير الإنسان على هداه فيما يماثله أو يشابهه من قضايا ومواقف.. وعلى ضوء هذا نعرف أنّ هذه النصوص، وإن ركّزت على الحساب في الدنيا من أجل مواجهة الحساب في الآخرة ممّا يوحي بأنّ المسألة ليست مسألة النقد الذاتي في نطاق حياتنا التي تعيش.. إلا أنّنا نلاحظ فيها شمول النظرة من جانبين:

الأوّل: أنّ الحساب الذي يهدف إلى تصفية الإنسان أعماله أمام الله في الآخرة لا تنفصل عن المحاسبة في واقع حياتنا المعاش، لأنّ حياتنا هذه، بكلّ ما فيها من خير وشرٍّ، أو قوّة وضعف، أو نجاح أو فشل، هي التي نحاسَب عليها في الآخرة، لأنّ لكلّ جانب من هذه الجوانب حكماً لله يُراد من الإنسان تنفيذه والإخلاص له، فيُثاب على إطاعته، ويُعاقَب على عصيانه والتمرّد عليه، سواء أكان ذلك الشيء يتعلّق بأصل العمل، أو بنوعيّته، وأبعاده.

الثاني: إنّ هذه الأحاديث تستهدف وضع الإنسان في جوّ النقد والمحاسبة

ليسير في هذا الاتجاه. وإذا تعلّم الإنسان كيف يحاسب نفسه من خلال الآخرة، عرف ـ من خلال ذلك ـ كيف يحاسب نفسه في شؤون الدنيا، لأنّ طريقة الحياة وأسلوبها في بعض الجوانب ينطبع على بقية الجوانب، فإنّ أسلوب الإنسان في مواجهة حياته وممارستها لا يتغيّر ولا يختلف باختلاف مفرداتها وأبعادها.

ولعلّ أوضح كلمة تضع أيدينا على المعنى الشامل لهذا المبدأ هي كلمة النبي(ص): «**وزنوها قبل أن توزنوا..**» فإنها دعوةٌ إلى القيام بعملية تقييم للنفس من الداخل والخارج قبل أن تُوضع في الميزان وفي عملية التقييم دون شعور.

وربما نجد في بعض النصوص الدينيّة، الدعوةَ إلى أن يمارس الإنسان عملية النقد فيما يُقدِم عليه من أعمال وما يريده من مشاريع، قبل أن يُقدِم عليها أو يخوض فيها.

ففي نهج البلاغة: من كلام للإمام علي (ع):

«**فليصدق رائد أهله، وليحضر عقله، وليكن من أبناء الآخرة فإنّه منها قدم، وإليها ينقلب فالناظر بالقلب عامل بالبصر يكون مبتدأ عمله أن يعلم.. أعمله عليه أم له؟.. فإن كان له مضى فيه، وإن كان عليه، وقف عنه، فإنَّ العامل بغير علم كسائرٍ في غير طريق، فلا يزيده بُعدُه عن الطريق إلا بُعداً من حاجته، والعالم بالعلمِ كسائر على الطريق الواضح فلينظر ناظر، أسائر هو أم راجع؟**».

وقد نجد في الأدعية الكثيرة التي وردتنا في التراث الإسلامي ـ عن أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) ـ نماذج حيّة من أساليب النقد الذاتي الذي يعتمد على تحليل المواقف والظواهر من أجل الوصول إلى الأسباب التي شاركت في حدوثها، أو الجوانب التي ارتكزت عليها، أو الآفاق التي تعيش فيها.. كلّ ذلك بطريقة روحيّة واعية ينطلق فيها الإنسان بين يدي الله، ليكتشف نفسه في أبعادها الخفية والظاهرة.

ولعلّ من أوضح هذه النماذج الفقرات التالية في دعاء أبي حمزة الثمالي الذي يُقرأ في السّحر في شهر رمضان:

«إلهي ما لي كلّما قلت قد تهيّأت وتعبّأت واستعدّيت، وقمت للصلاة بين يديك وناجيتك، ألقيت عليّ نعاساً إذا أنا صلّيت وسلبتني مناجاتك إذا أنا ناجيتك».

خاتمة المطاف:

وفي نهاية المطاف: نجد أنّنا نقف وجهاً لوجه أمام قضيّة النقد على جميع ألوانه وأقسامه، لنواجه الموقف الإسلامي الذي يدعونا إلى السير به في نطاقه الذي أراده الله، وهو الجانب الذي لا يستهدف الهدم لمجرّد الهدم، والتخريب من أجل التخريب، بل يستهدف البناء والإصلاح والتقييم وإعطاء الواقع صفته الواقعية دون زيادة ولا نقصان.

ثمّ... نلتفت إلى ذواتنا وأوضاعنا العامّة والخاصّة، لنُعيد النظر فيها على أساس النقد الذاتي الذي يحلّل للنفس دوافعها وأعمالها، ويفتش في الظواهر والأوضاع عن أسبابها وأبعادها، لنلتقي بالحقيقة الخالصة دون لفٍّ أو دوران.. ولنصل في النهاية إلى شاطئ الأمان حيث يلتقي الإنسان بالحقّ والخير والإيمان جميعاً، بين يدي الله.

الانفعال

موقف الإسلام من الانفعال

تمهيد

قد يكون من الخير لنا ـ أمام هذا الحديث ـ أن نتحدّث عن القاعدة الإسلامية التي تحكم السلوك بوجه عام،... فنلاحظ ـ في بداية المطاف ـ أنّ الإسلام ينظر إلى الإنسان كمخلوق حيّ فاعل يتحمّل مسؤوليّة بناء الحياة وتركيزها على قواعد ثابتة تتجسّد فيها إرادة الله في الكون عبر نظامه الأفضل، لتكون الحياة الإنسانيّة منسجمة في نظامها العملي مع النظام الكوني الشامل.

ولهذا فإنّه يريد منه أن يواجه الحياة من خلال الشعور بالمسؤوليّة في حياته العامّة والخاصّة.

ولعلّ من الطبيعي له ـ وهو يتحرّك في هذا الاتجاه ـ أن يواجه الموقف كلّه بدراسةٍ موضوعية شاملة تعتمد على المعرفة الواعية للجوانب الأساسية المحيطة بالموقف، أو المجالات العملية التي يتحرّك فيها، والأهداف الحيوية التي ينطلق من خلالها ويعيش من أجلها.

وعلى ضوء هذا، كان أسلوبه في ذلك كلّه، يتّجه إلى الأسلوب العقلاني الذي يواجه الحياة ويقف معها وقفة موضوعية هادئة، تدرس الموقف على الطبيعة، كما هو، دون زيادة أو نقصان، بعيداً عن الانفعالات الذاتية التي قد تعطي الصورة حجماً أكبر من حجمها الحقيقي، في بعض الحالات، أو أقلّ منه في حالات

أخرى، لنستطيع مواجهة الواقع بفهم حقيقيّ ووعي منفتح، وبالتالي لتتمكّن من السيطرة على ما فيه من مشاكل وقضايا شائكة معقّدة.

قيمة العقل في الإسلام

وربّما يكون من مظاهر التركيز على هذا الجانب من الأسلوب، هو الاهتمام الكبير الذي أولاه الإسلام للعقل من حيث هو قوّة أساسية، ترصد للإنسان تفكيره، وترعى خطواته العملية في الحياة، فاعتبره مركز الدائرة في قاعدة المسؤوليّة، ليوحي لنا بأنّ العقل الهادئ هو الأساس في حساب المسؤوليّة، فلا مسؤوليّة بدون عقل، لأنّه لا معنى للمسؤوليّة، دون النظر إلى طبيعة العمل ونتائجه، ووسائله وأهدافه، ليعرف الإنسان، أين تكون البداية، وأين تستقرّ النهاية، ولا مجال لذلك بدون العقل.

ومن أوضح الأدلّة على هذه الحقيقة الإسلامية، الأحاديث الشريفة الواردة في ذلك.

ففي كتاب الكافي، عن الإمام أبي جعفر محمّد الباقر، قال: «**لَمّا خلق الله العقل استنطقه ثم قال له: أقبِل، فأقبَل، ثم قال له: أدبِر فأدبَر، ثم قال وعزّتي وجلالي، ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليّ منك، ولا أكملتك إلا فيمن أحبّ، أما إني أيّاك آمر، وإيّاك أنهي، وإيّاك أعاقب، وإيّاك أثيب**».

وفي حديث آخر عن الإمام جعفر الصادق (ع) قال: «**قال رسول الله: إذا بلغكم عن الرجل حُسْنُ حال، فانظروا عقله فإنّما يُجَازَى بعقله**».

ويروي أحد أصحاب الإمام الصادق أنّه قال: ذكرت لأبي عبد الله رجلاً مُبتلى بالوضوء والصلاة(*)، وقلت: هو رجل عاقل فقال أبو عبد الله: «**وأيّ عقل**

(*) أي بالوسواس في نيتهما أو أفعالهما أو شرائطهما.

له، وهو يطيع الشيطان؟»، فقلت له: وكيف يُطيع الشيطان؟ فقال: «**سَلْهُ هذا الذي يأتيه من أيّ شيء هو. فإنّه يقول لك: هو من عمل الشيطان**».

وقد تحدّث القرآن الكريم في أكثر من خمسين آية، عن أهمية العقل ودوره في بناء شخصيّة الإنسان وانفتاحه على ما في الحياة من خير وصلاح، وأشار إلى كثير من الانحرافات الفكريّة والعملية التي طرأت على مسيرة الإنسان فقادته إلى الهلاك والخسران في الدنيا والآخرة، وأوضح أنّ ذلك كلّه، يرجع إلى فقدانِ العقل أو إهمالِه، وترك استعماله، كأساس للحكم على طبائع الأشياء ومعرفتها بعمق، كما نلاحظ ذلك في الآيات التالية:

﴿**وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾[الملك: ١٠].

﴿**لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرىً مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ**﴾[الحشر: ١٤].

﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾[البقرة: ١٧١].

﴿**وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ**﴾[المائدة: ٥٨].

﴿**مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَـكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾[المائدة: ١٠٣].

ففي هذه الآيات إيحاءٌ ودلالةٌ، بأنّ فقدان العقل، أو سوء استخدامه، يؤدّيان بالإنسان إلى الكفر والهلاك وإلى مواجهة الأمور الكبيرة بأساليب السخرية والاستهزاء. وينتهي بالمجتمع إلى الانقسام والتمزّق، أو القلق والضياع.. لأنّ حركة العقل في الاتجاه السليم هي التي تعرّف الإنسان مواطن الخير والشرّ في

الأشياء. وهي التي تكشف له نقاط الضعف والقوّة بما تفتحه من آفاق المعرفة الواسعة، الأمر الذي يبعده عن الخضوع لأجواء الانحراف والضلال، التي ترتكز على أسسٍ عاطفية انفعالية تفرضها حالة البيئة ودوافع الإغراء.

وهناك آيات تدفع الإنسان إلى الشعور، بقيمة الآيات الكونية التي أودعها الله في الطبيعة، والإنسان، كمنطلق للإيمان، وتوجّهه إلى الإحساس بروعة الآيات الفكريّة والتشريعية التي فصّلها الله في كتابه الكريم، كقاعدةٍ للعقيدة، وتدعو العقل إلى التحرّك في اتجاه التفكير في ذلك كلّه من أجل أن يفتح وعي الإنسان وفكره على جوانب العظمة في الكون وروائع الإبداع في التشريع، كما نجد ذلك في الآيات التالية:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[البقرة: ١٦٤].

﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الروم: ٢٨].

ولعلّ السرّ في ذلك، أنّ الذين يعقلون، هم الذين لا يمرّون بالأحداث والظواهر المحيطة بهم، مروراً خفيفاً، لا يلامس إلا ظاهر الأشياء، بل يحاولون الوقوف عندها، والتعمّق فيها، والامتداد بأنظارهم وأفكارهم، إلى جميع جوانبها، فيتعرّفون من خلال ذلك على أسس القضايا وجذورها، وينفتحون منها على أفق جديد من آفاق الإيمان والمعرفة الواعية العميقة.

القصّة في القرآن.. في طريق العقل

حتى القصّة في القرآن الكريم.. لا يريد الله للإنسان أن يمرّ بها كما يمرّ بالأقاصيص التي يملأ به فراغ وقته، أو يشبع بها غريزة حبّ الاستطلاع في ذاته، أو ينفعل بأحداثها وإيحاءاتها انفعالاً عاطفياً عابراً يثير أعماقه دون أن يترك فيها أيّ أثر كبير، بل يريد له أن يجعل منها منطلقاً للتفكير حتى يستطيع أن يفهم طبيعة أحداث القصّة في الماضي، وعلاقتها بالعقيدة والحياة، وإمكانية الاستفادة منها في حياتنا من خلال المبادئ العامّة التي تتحرّك في إطار القصّة دون أن تنحصر في نطاق محدود من الزمان والمكان.

وبهذا كان التاريخ والحديث عنه ـ في مفهوم الإسلام ـ يمثّل أسلوباً من أساليب القرآن التربوية، التي يهدف ـ من خلالها ـ إلى حشد التجارب الإنسانيّة الماضية أمام الإنسان ليأخذ منها العبر والعِظات والدروس التي تنفعه في حياته الحاضرة، بعيداً عن أيّ انفعال أو علاقة عاطفية.

فالقضية أن يرتبط الإنسان بأحداث التاريخ وقصصه من خلال ما تقدّمه من تجارب ومبادئ عامّة، ليتحرّك الإنسان في اتجاه ذلك في خطواته العملية نحو التقدّم والنمو، على أساس ارتباطه بالجذور العميقة من حركة الحياة. ولعلّنا نلاحظ ذلك في الآيات التالية:

﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾[الحشر: ٢].

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[البقرة: ١٣٤].

وعلى ضوء الآية الأخيرة تبرز الصورة الواضحة التي تجعل القصّة للفكر والسيرة، لا للانفعال والعاطفة، فما دامت الأحداث الماضية، لا تدخل في حساب مسؤوليّتنا المباشرة أمام الله تعالى، فلماذا نجعل منها مثاراً للانفعال

غير المسؤول الذي ربّما يهدم الحاضر على أساس خلافات الماضي التي قد لا تمثّل بالنسبة إلينا أيّ شيء في أغلب الحالات إلا في بعض الجوانب التي ترتبط بتحديد موقف للعقيدة والعمل، فنأخذ منها الموقف السليم، ونترك كلّ شيء ما عداه في ذاكرة الزمن لمجرّد الحفظ والاطلاع.

وبهذه الروح نتخلّص من كثير من الخلافات الدينيّة والمذهبية وتأثيرها على حياتنا العامّة، وعلاقاتنا الاجتماعيّة بسبب بعض التفسيرات لبعض قضايا التاريخ الدينيّ.. عندما ننظر إليها نظرتنا إلى أيّة قضية أخرى، لمجرّد الدرس والانتفاع.

وذلك هو الموقف العام للنظرة القرآنية للعقل ودوره الأساسيّ في حركة الإنسان الفكريّة والعملية... وقد حاولنا أن نعرض له بصورة إجمالية تشير إلى بعض اللّفتات القرآنية في هذا الجانب.

موقف قرآني بين الانفعالية والعقلانية

وقد نجد في بعض الآيات الكريمة تأكيداً على هذا الأسلوب في القضايا التي تقع مثاراً للجدل والخلاف، وتخلق في الساحة جواً انفعالياً حادّاً يُبعِد الإنسان عن معرفة الوجه الصحيح للقضية، كنتيجة طبيعية للتأثيرات الانفعالية العنيفة... فيحاول الإسلام ـ من خلال الأسلوب القرآني، إخراج الإنسان من الأجواء الانفعالية، إلى الأجواء الهادئة التي تجعله يفكّر بالقضية في أكثر من اتجاه، بعيداً عن أيّ تأثّر سريع ليصير بعد ذلك إلى معرفة الحقيقة من جميع جوانبها. ونجد ذلك واضحاً في الآية الكريمة:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[سبأ: ٤٦].

فهي تعرف جيداً أنّ مستوى الجماهير لا ينخفض عن السطح إلا قليلاً، وتدرك

ـ إلى جانب ذلك ـ طبيعة الغوغائية التي تكمن في نفس كلّ واحد منهم، وجانب الانفعال والحماس الذي سرعان ما يطغى ويثور. الأمر الذي يمهّد للتهمة ـ أيّة تهمة ـ أن تنتشر وتمتدّ إلى ذهن كلّ واحد منهم دون محاكمة أو مناقشة، حتى لتنطلق ـ بعد ذلك ـ في صورة تيار جارف يجرف المشاعر والأحاسيس ويحوّلها إلى ما يشبه الطوفان، ولذا فإن الدعوة تدرك أنّها تعيش في موقف معقّد، لا بدّ لها ـ في معالجته ـ من الدقّة والحذر، فماذا فعلت؟

إنّها لم تحاول أن تتّجه إلى الجماهير ـ في وضع خطابي أو إقناعي، لتدفع التّهمة عن صاحبها ورائدها الرسول الأعظم (ص) وذلك بتقديم الأدلّة والبراهين التي تدحض هذه التّهمة وتدفع هذه الفِرْيَة، لأنّ الجماهير لا تدرك لغة الحجج والبراهين في طوفان الحماس والاندفاع، فهي لا تستمع إليها ولا تلقي بالاً لما تقول.

.. إنّها لم تحاول ذلك ولم ترد هي أن تقوم بنفي التّهمة، لأنّ صاحبها ـ في حسبان الجماهير ـ لا يعي ما يقول، فكيف تقبل منه الحجّة بالدفاع عن نفسه.

بل حاولت أن تدلّ هؤلاء على منهج البحث وطريقة المعرفة، وتُرجعهم إلى ذواتهم وفطرتهم.. ولكن بطريقةٍ لبقة لا تُشعِر الآخرين بالغاية التي تنتمي إليها فقد دعتهم إلى أن يتفرّقوا مَثْنى وفُرادى وينفصلوا عن الجوّ العاصف الذي يعيشون فيه. ثم يحاولون دراسة هذه التّهمة، والتفكير فيها بعيداً عن المؤثّرات العاطفية ليصلوا إلى النتيجة الحاسمة التي يُمليها عليهم تفكيرهم الأصيل وملاحظتهم الشخصيّة لأفعال النبي (ص) وأقواله العامّة.

فهي لم تقم بنفي الفكرة ابتداءً، ولم تتّخذ صفة الناقد لهم والموجّه لأفعالهم، بل حاولت دعوتهم إلى أن يناقشوا الفكرة، ويهيّئوا لأنفسهم الجوّ الهادئ للتفكير والمناقشة. فهي في هذا الجوّ، أشبه بالمتّهم الذي لا يحاول ادعاء البراءة لنفسه

أمام القضاة، بل يكتفي بمحاولة إرشادهم إلى أن يراجعوا الوثائق والمستندات المتعلّقة بقضيّته ليحكموا ـ عليه ـ من خلالها بما يوحي إليهم ضميرهم بعيداً عن أيِّ تأثير وهو واثق ـ في الوقت نفسه ـ من أنّ النتيجة ستكون في صفِّه(*).

الطريقة العقلانية تؤدّي إلى العمل

وربّما نجد في القرآن الكريم بعض الحديث عن هذا الأسلوب العقلاني الذي يعتمد على إثارة التفكير في المعالم الكونية في السماء والأرض، ومدى ما يستطيع أن يثير الإنسانَ من التحوّل إلى المواقف العملية التي تحدّد للإنسان طريقه في الحياة بين يدي الله تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ* رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩٤].

فنحن نرى أنّ التفكير العميق الهادف هو الذي قادهم إلى معرفة الله وعظمته من خلال عظمة خلقه، وانتهى بهم إلى النتيجة العملية التي يشعرون فيها بالإيمان يعيش في أعماقهم وينطلق في مناجاة خاشعة واعية، ثم يتحوّل بعد ذلك إلى ممارسةٍ للمسؤوليّة، وترقّبٍ للنتائج الحاسمة لحساب المسؤوليّة أمام الله..

وهكذا نعرف ـ من خلال هذه الآيات ـ أنّ الرحلة الأولى التي يريد الإسلام

(*) أسلوب الدعوة في القرآن ٦٧ ـ ٦٨ طبعة ثانية.

للإنسان أن يبدأها في مجال التفكير، لا يريد لها أن تقف وتتجمّد عند الحدود النظريّة للفكر، بل يريد لها أن تظلّ سائرة نحو العمل في طريقها إلى الله.

رفض الإسلام للتقليد الفكريّ للآباء

ونخلص، من هذا الحديث عن نظرة القرآن الكريم إلى العقل، وإلى دوره الكبير في حياة الإنسان من جميع جوانبها الفكريّة والعمليّة، إلى نتيجة حاسمة، وهي رفض الإسلام، لأيّ اتجاه أو سلوك يبتعد عن الإطار العقلي في شكله وطابعه، ومنطلقه وأبعاده.

وعلى ضوء ذلك نفهم رفض الإسلام للفكر الذي يرتكز على أسس انفعالية وعاطفية، وللسلوك الإنسانيّ الذي يرتكز على هذا الاتجاه.

وقد نجد من الخير أن نعرض ـ في نهاية المطاف ـ إلى شاهد قرآني من أوضح الشواهد على ذلك، في الحملة التي شنّها الإسلام في القرآن على أولئك الذين يبرّرون أفكارهم وعقائدهم، باعتقاد آبائِهم بها وانتمائهم إليها نظراً إلى الروح الانفعالية التي تنطلق من فكرة تقديس الآباء وتعظيمهم، ومن الشعور بضرورة السير على خطى الآباء والأجداد، لأنّ الانحراف عن ذلك، يخلق في داخلهم الشعور بالعار من جهة، وبالإساءة لذكراهم من جهة أخرى.

وكان القرآن حاسماً في ذلك كلّه.. فالقضية عنده، أنّ علاقة الأبوّة وكلّ علاقات القرابة، لا تفرض على الإنسان إلا التعاطف والتراحم، والانسجام مع المشاعر العاطفية الخاصّة، سواءً في ذلك، حال الحياة، وحال الموت.

أمّا العقيدة، أمّا خطّ السير في الحياة، فلا يخضع لأيّ شيء من ذلك، لأنّه مرتبط بدراسة الفكرة في ذاتها، وفي موقعها من الواقع.

وإذا كانت القضيّة تسير في هذا الاتجاه، فلا بدّ من التجرّد ومواجهة الموقف

بموضوعية كاملة لا تنظر إلاّ إلى طبيعة الفكرة، بعيداً عن كلّ المؤثّرات العاطفية التي لا معنى لها.

وبذلك ألغى الإسلام كلّ اعتبارٍ للعلاقات الإنسانيّة في حال العقيدة، وحطّم كلّ قداسة للماضي الذي يرتبط الإنسان بجذوره ـ في هذا المجال ـ ليفسح المجال للفكر كي ينطلق ويتحرّك بكلّ قسوة وجفاف ـ إن صحّ التعبير ـ، وربّما تتّضح الصورة أكثر في هذه الآيات الكريمة:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾[البقرة: ١٧٠].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾[المائدة: ١٠٤].

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[سبأ: ٤٣].

﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾[الزخرف: ٢٢ ـ ٢٤].

فهنا منطق يرتكز على أساس الحالّة النفسيّة التي ترفض الانحراف عن خطّ الآباء، وتعتبر مخالفة أيّ فكرة لهذا الخطّ سبباً كافياً لرفضها وجحودها.

أمّا منطق القرآن فيرفض ذلك كلّه بقوّة، فهو يريد أن يفتح عيونهم على ذهنية آبائِهم وتخلّفهم وإمكانية ابتعادهم عن الحقّ والهدى، أو عدم إدراكهم للأبعاد

الحقيقية لذلك كلّه، ويوجّههم إلى أن يواجهوا الموقف من خلال قناعاتهم وتأمّلاتهم الخاصّة، بعيداً عن الشعور بقداسة الآباء والأجداد.

ولكن.. هل نرفض الانفعال من الأساس؟

ولكن هل معنى هذا.. أنّ الإسلام يرفض الانفعال من الأساس، فيجرّد الإنسان من كلّ نوازعه الانفعالية في حياته، ويحوّله إلى مخلوقٍ جامد يتحرّك بحساب، ويقف بحساب، بعيداً عن كلّ العواطف والانفعالات، فليس هناك إلا الأرقام التي تتكلّم في ميزان الربح والخسارة، في عملية الجمع والطرح.

لن يكون الجواب إيجاباً ـ فيما نظن ـ فللانفعال دوره الكبير في توجيه الإنسان نحو نشاطاته الفكريّة والعملية، وتنمية دوافعه نحو العلم... وله تأثيره القويّ في إعطاء العلاقات الإنسانيّة طابعاً روحيّاً حميماً يتجاوز لغة الأرقام إلى مجالات جديدة أخرى، من العطاء والتضحية والإيثار، فإنّ ذلك هو الحافز الأساسي الذي إذا فقده الإنسان فَقَدَ إحساسه بالحياة، ككائن حيٍّ تموج المعاني الإنسانيّة في أعماقه، وتُحوَّل إلى آلة تتحرك دون روح.

إنّ كلّ ما يهدف إليه الإسلام ـ فيما نفهم ـ هو تعقيل العاطفة، وتنظيم الانفعال، لأنّ من شأن العاطفة أن تتدفّق إلى حدّ الفيضان، فلذا نشعر إزاء ذلك بالحاجة إلى الحواجز والسدود التي تمنعها من الوصول إلى المرحلة التي تتعرّض فيها حياة الناس للخطر.

أما الانفعال، فقد يطغى إلى مستوى الجنون، فلا يعي الإنسان معه ـ ما حوله ـ الأمر الذي يدعونا إلى تنظيمه وتبريره حتى يعرف الإنسان جيداً حين يبدأ، إلى أين ينتهي به المطاف.

وبذلك يتحقّق للإنسان التوازن الذي يستهدفه الإسلام في حركة الإنسان في

الحياة، التي يريدها أن ترتكز على أساس المسؤوليّة الواعية التي تعرف طريقها جيّداً، فلا يسمح بطغيان جانب على آخر، ولا بتغلّب عنصر على عنصر، بل هي الجوانب والعناصر التي تتحكّم وتنسجم لتجسّد النفس الإنسانيّة الواحدة السائرة في الاتجاه السليم.

الإسلام أمام نماذج متنوّعة من الانفعال

لكي تتّضح الصورة لا بدّ لنا من استعراض بعض الانفعالات التي حاول الإسلام أن يوجّهها من الداخل، على أساس تغيير الدوافع والأسباب التي تثير الانفعال، وتحويلها إلى أسباب ودوافع جديدة يمكن أن يبني الانفعال الحاصل منها حياة الإنسان ويشارك في الاتجاه بها نحو الأفضل.

هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، يحاول الإسلام أن يضبط الانفعال في حالة انطلاقه، ويحصره في نطاق محدود من الممارسة الانفعالية: فشقّ طريق الصبر والإيمان حتى لا يشذّ الإنسان في انفعالاته ويأتي بأشياء منكرة يأباها الخُلُق والمجتمع، فكبح الغضب في عدّة سور من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وسيرة آل البيت الطاهرين.

قال الله تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا

﴿أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائدة: ٤٨ ـ ٥٠].

فلقد خلق الله الكون وأحسن خَلْقَه وتيسيره... وسخّر جميع الكائنات في الأرض والبحار في خدمة الإنسان.. فكلّ شيء بحساب، وكلّ حركة بقدر.. من أصغر ذرّة إلى أكبر مخلوق.. فهي تتحرّك وتتصرّف وفقاً للنظام الحكيم بدقّة وانتظام.

وتكتمل الصورة في مشهد آخر.

فالإنسان لم يُخلق عبثاً.. فهو ـ في الحياة ـ مخلوق ذو رسالة، يلزمه أن يجسّدها في الحياة من خلال سلوكه وسلوك الآخرين، ومن خصائص العمل الرسالي، أن يحدّد للإنسان مسؤوليّته ـ ويواجهه ـ بعد ذلك، بنتائجها، في حساب الثواب والعقاب، لينطلق في حياته على أساس مدروس ومنظّم.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٦ ـ ٨].

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ [الكهف: ٤٩].

وعلى ضوء هذا كلّه.

فأين يكون الخوف؟

في الحاضر أو في المستقبل؟

هل نخاف من القوى الكونية؟

إنّها ليست إلا ظواهر طبيعية تخضع لأسباب معيّنة يمكن للإنسان أن يتعرّف عليها من خلال الثقافة العلمية المبسّطة، ويمكن له أن يوفّر لنفسه سُبُل الحماية في كثير منها.

هل نخاف من قوى البشر؟

إنّهم لا يملكون لنا ضرّاً إلا بالله. فلا يجوز لنا أن نخافهم ما دام الله قادراً على أن يصرف عنا كيدهم، وما دمنا نؤمن أنّنا مخلوقون مثلهم، وأنّهم لا يملكون طاقة غير عادية لا نملك تحصيلها.. بل كلّ ما يملكون من طاقةٍ فهو مماثل لما نملكه، أو لِما نستطيع أن نملكه في قليل أو في كثير.. وكلّه تحت قدرة الله وسلطته..

وتلك هي صورة الإنسان المؤمن الذي يواجه قدرة البشر كلّها، يصوّرها لنا القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ**﴾[آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٤].

﴿**الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً**﴾[الأحزاب: ٣٩].

﴿**إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾[آل عمران: ١٧٥].

هل نخاف من الفقر؟

إنّ الرزق بيد الله، فهو مقدَّرٌ منه، بحسب الظروف التي تحيط بالإنسان، والقدرات التي يملكها، والفوارق التي تتاح له لا يزيد ولا ينقص.

إنّ لك أن تبذل كلّ جهدك، وكلّ قوتك، منفرداً أو منضمّاً إلى الآخرين

في العمل، وفي توفير الفرص في تهيئة الأجواء.. فهي الأسباب الطبيعية التي تستطيع في إطارها التحرّك من أجل الحصول على الرزق.. ثم يبقى بعد ذلك الفرص التي لم تُحتسب، وغير ذلك ممّا يوفّره الله للناس بأسبابٍ غير عادية.

هل نخاف من المجهول؟

إنّ المجهول ليس قوةً مجنونةً تتحرّك دون وعي ولا نظام، حتى تخاف منها أن تقتحم حياتك عليك فتدمّرها وتذهب بكلّ شيء.

إنّ المجهول، هو حياة المستقبل، التي تخضع لتدبير الله ونظامه، وتتحرّك وفق السنن الكونية التي أودعها الله فيه على أساس الحكمة والرحمة، تماماً، كما هي حياة الحاضر والماضي التي كانت سائرةً وفق الحكمة والنظام.

ولذا، فإنّ عليك أن تواجه التطلّع إلى المجهول بروح تحسب ما تستطيع عمله، وتترك لتقدير الله وتدبيره ما لا تستطيع إدراكه أو عمله، لتشعر بالرضا والطمأنينة وتبتعد عن الشعور بالضياع والقلق المدمِّر.

وهذا ما يفسّر مفهوم التوكّل على الله، الذي يجسّد الطمأنينة الهادئة بالمستقبل لأنّه في رعاية الله وتدبيره، بعد أن قام الإنسان بكلّ ما يجب عليه تجاهه.

وقد ورد في الحديث الشريف في تحديد معنى التوكل: «**ألاَّ تخاف أحداً إلا الله..**» من قوى كونية، أو قوى بشرية.

هل نخاف من الموت؟

إنّ الأعمار بيد الله، فهو الذي حدّدها ضمن النظام الكوني، وهو الذي خلق الموت والحياة: ﴿**فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ**﴾[الأعراف: ٣٤].

ماذا نخاف منه؟

أتخاف شكله أو أجواءَه، إنّه جواز المرور إلى حياة جديدة، أفضل من حياتك في السعة والامتداد والشمول والتجرّد.

أتخاف من حدوثه؟ كيف؟ أَيمكن أَلاَّ يحدث أبداً.. وإذا كان أمراً حتميّاً، فأين يكون الخوف؟ ما معناه؟

إذن.. فالصورة ليست ضائعة الألوان والخطوط، حتى نخاف وحشة الأشباح فيها.. فنحن جزءٌ من هذا النظام.. وفي إطاره نتحرّك، في ظلّ رعايةٍ رحيمةٍ حكيمةٍ، هي الأوّل والآخر في كلّ شيء، وليس لغيرها من الأمر شيء.

فلماذا نخاف من الحياة؟

ولماذا نخاف من الموت؟

إنّك في الحياة في رحمة الله، وبعد الموت في رحمة الله.. فأين يكون الخوف، وما معناه؟

وتزول المثيرات المادّية للخوف من نفس الإنسان، بفعل الإيمان بالله، والاطمئنان للقضاء والقدر.

ويبقى عنصر واحد يشغل عقل الإنسان وروحه، فيثير فيه انفعالات الخوف من المستقبل، ولكنّه ليس مستقبل الدنيا، بل مستقبل الآخرة.

إنّه عنصر المسؤوليّة العملية التي يتحرّك فيها الإنسان، ليواجه حسابها أمام الله، فيظل نهب الشعور بالخوف من التقصير والقلق من الإهمال.

ويظلّ الخوف من الله، من غضبه وعقابه، يهزّ ضمير الإنسان وكيانه، ليحرّك فيها الحافز الأعمق للسير في الخط المستقيم. الذي يومِّن له الاطمئنان إلى رضاء الله ورحمته.

﴿قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[الأنعام: ١٥].

﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١].

﴿يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾[النور: ٣٧].

وحتّى الخوف من الله.. لا يتحوّل إلى عُقدة مَرَضيّة تشلُّ في الإنسان قدرته على العمل.. فهناك بابٌ يفتحه الإسلام للأمل والرجاء لله، في العفو والمغفرة.. ولكنّه رجاء لا يبعث على التمادي في الضلال، كما كان الخوف لا يشجّعه على اليأس والقنوط.

الغضب في مفهوم الإسلام

في بعض النصوص الدينيّة: «**إنّ الغضب جمرة من الشيطان توقد في قلب ابن آدم، وإنّ أحدكم إذا غضب احمرّت عيناه وانتفخت أوداجه، ودخل الشيطان فيه**».

وفي حديث النبيّ محمّد (ص): «**الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الخلّ العسل**».

وفي حديث الإمام جعفر الصادق (ع): «**الغضب ممحقة لقلب الحكيم**».

وفي حديث آخر له: «**الغضب مفتاح كل شر**».

وفي حديث ثالث عنه: «**من لم يملك غضبه لم يملك عقله**».

هذه هي بعض النصوص الإسلامية التي تتحدّث عن الغضب، وعن آثاره في حياة الإنسان الروحيّة والعقلية والعملية فنلاحظ في الحديث الأول: أنّه اعتبره من الحالات الوجدانية التي تتّقد في كيان الإنسان وقلبه، كما تتّقد الجمرة فتبعث الشرر واللّهب فيما حولها، فيتحوّل الإنسان إلى أعصاب تلتهب بالمشاعر العنيفة، وإلى نوازع تتحرّك بجنون، وعند ذلك تنطلق عوامل السوء ونوازع

الشرّ لتملأ كيان الإنسان فتحرّكه نحو غاياتها بكلّ سهولة، لأنّ النفس تفقد ـ مع الغضب ـ وداعة الملاك وخيره، لتخضع لجنون الشيطان وشرّه.

إنّها تتحوّل إلى أعصاب ثائرة بدون عقل، ومشاعر هائجة دون ردع.

وربّما نجد ملامح هذا المعنى في الحديث الرابع: لأنّ النفس إذا عاشت هذا الجوّ المحموم الحاد، فقدت الحاجز الذي يغلق عنها أبواب الشرّ، الأمر الذي يهيّئ للشرّ أن يندفع نحوها بكلّ قوّة وجنون.

أما الحديث الثالث والخامس فيتعرّضان للآثار السيئة التي يتركها الغضب في عقل الإنسان وفكره، فهو يمحق قلب الإنسان الحكيم (والمراد بالقلب: الفكر) لأنّ الغضب ـ كما ألمحنا إليه ـ يساهم في اختلال التفكير الدقيق المنتظم الذي يرتكز على الصورة الواضحة، والمعاني الدقيقة التي يعمل الفكر على التنسيق بينها وربط بعضها ببعض لتحويلها إلى نتائج جديدة.

وكما يمنع الغضب من التفكير الدقيق، يمنع ـ من جهة أخرى ـ من قدرة العقل على مراقبة العمل والتصرّف، ويخفّف من حركته في مجال النقد والتمحيص، وعندما تضعف الإرادة، ويتضاءل دور النقد لدى الإنسان، يصبح الشخص خاضعاً لحوافز عمياء ودوافع جبريّة.

وفي الحديث الثاني المأثور عن النبي (ص) نعرف تأثير الغضب في الإيمان، فنرى أنّه يُفسد على الإنسان إيمانه، كما يُفسد عليه عقله، لأنّ الإيمان بالله يرتكز على وعي الإنسان العميق، لعلاقته بالله، وارتباطه بأوامره ونواهيه، الأمر الذي يحتاج الإنسان معه إلى أن يظلّ على اتصال بالروح الهادئة والتفكير العميق.

وقد عرفنا أنّ الغضب يُفقد الإنسان هدوء روحه وسلامة تفكيره، وإذا فَقَدَ ذلك فَقَدَ وعيَه بالله والتزامه بإرادته.

كيف يثور الغضب؟

في حديث الإمام جعفر الصادق (ع): «**قال الحواريون لعيسى (ع) أيّ الأشياء أشدّ؟ قال: أشدّ الأشياء غضب الله قالوا: بِمَ نتّقي غضب الله قال: بأن لا تغضبوا قالوا: وما بَدءُ الغضب؟ قال: الكِبْرُ والتجبّر ومَحقَرة الناس**».

فقد نلاحظ ـ في هذا الحديث ـ أنّ بعض أسباب الغضب ـ في مجال العلاقات الإنسانيّة، يكمن في شخصيّة الإنسان من الداخل.

فالإنسان الذي يعيش الكِبْر في نفسه، والتجبّر فيمن حوله، ويشعر بالاحتقار للآخرين، لا يستطيع أن يملك نفسه عندما يُثار، فهو يرى لنفسه الحقّ على الناس في كلّ شيء، ولا يرى لهم عليه أيّ حقّ... وبذلك تبقى حياته معهم، في حالة توتّر دائم، وقلق مدمّر، يُرهف جانب الإحساس الذاتي لديه، حتى تتحوّل ذاته إلى عقدةٍ.. وتتطوّر العقدة إلى جنون يشعر معه بنفسه وكأنّه قُدْسُ الأقداس الذي ينبغي للحياة أن تظلّ صاغرة لديه تسبّح لآلائه وتقدّس رغباته.

وتتبدّل نظرته إلى ما حوله ومَن حوله تبعاً لذلك، فالحياة كلّها في خدمته، والآخرون ـ من بني الإنسان ـ مسؤولون عن راحته حتّى على حساب راحة أعصابهم، فليس لهم أن يتكلّموا معه إلا من خلال الشعور بقداسته، والإحساس بعظمته، وإلاّ، فعليهم أن يعرّضوا أنفسهم لغضبه، فيما إذا صدرت منهم بعض الكلمات أو الحركات أو الأوضاع العامّة أو الخاصّة التي لا تتلاءم مع مزاجه، أو لا تنسجم مع رغباته، وإن لم يكن لها صلة به من قريب أو من بعيد، لأنّه يرى أنّ من حقّه، أن يدرس الناس كلّ شيء من خلال راحته لا من خلال السُّنة الطبيعية للحياة.

إنّ هذا التركيب المرضي لطبيعة هذا الإنسان هو الذي يدفع الإنسان إلى الثورة العمياء على من حوله وما حوله، لدى أقلّ شيء مزعج، وإن لم يكن له أثر في نطاق الحياة العاديّة.

وهذا هو ما نشاهده بارزاً في سلوك كثير ممّن يملكون الثروة الكبيرة أو الجاه العظيم، أو السلطة الواسعة.

إنّ الأشياء تتضخّم عندهم من خلال شعورهم بضخامة شخصيّاتهم، وحقارة شخصيّات الآخرين حتى تتحوّل المطالبة بالحقّ ـ عندهم ـ إلى عدوان على السلطة، لأنّهم لا يشعرون بأنّ للآخرين حقّاً لديهم، ولذا فإنّهم يثورون ويغضبون لذلك، وربّما يقودهم الغضب إلى الجريمة.

وقد تنطلق الكلمة طبيعيةً من الناس في عتاب أو غيره مما يشبهه، فتتحوّل ـ في وجدانهم المريض ـ إلى ما يُشبه الشتم والسباب، إذ ليس للناس أن يخاطبوهم كما يخاطبون بعضهم البعض حتّى في أشدّ العلاقات الحميمة، كعلاقة الزوج بزوجته.. فقد نلاحظ أنّ بعض هؤلاء يتصوّر أنّ على زوجته أن تعيش معه في إطار الاحترام المقدّس حتى في الأوضاع الزوجية الخاصّة جداً.

من الطبيعي أن نقرّر، أنّ مثل هذه الحالة تختلف في الإنسان شدّة وضعفاً، ولذلك فإنّ تأثيرها في إثارة الانفعال يختلف في شدّته وضعفه تبعاً لذلك، فكلّما ازداد الإنسان شعوراً بذاته، كلّما ازدادت عوامل الإثارة لديه حتّى فيما لا يثير بشكل عادي، وكلّما فقد الإنسان الشعور بذاته بشكل مميّز يجعل له الحقّ على الناس، كلّما كان أبعد عن الإثارة وأقرب إلى الهدوء، وإلى مواجهة القضايا من خلال ظروفها الطبيعية وأحوالها العادية.

وربّما يظنّ بعض الناس: أنّ الغضب مظهرٌ من مظاهر الشجاعة، ووسيلة من وسائل تأكيد الذات، وشعورها بالعزّة والكرامة أمام عوامل الإثارة من قِبَل الآخرين.. ويذكرون شاهداً لذلك كلمة الإمام الشافعي المعروفة: (من استُغضب ولم يغضب فهو حمار)، ويخيّل إليهم أنّهم حينما يغضبون أو يثورون لا يفعلون شيئاً، إلا ما تمليه عليهم مواقف العزّة والكرامة التي يريدها الله للمؤمنين.

ولكن هذا الظنّ خطأ، فإنّ الغضب بعيدٌ كلّ البعد عن هذه المعاني الكبيرة، وقد ورد عن النبيّ في الحديث المأثور «**ليس الشديد بالصُّرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**».

ويعجبني في هذا المجال كلام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين قال:

«وتسمية هذا عزّة نفس وشجاعة، جهل، بل هو مرض قلبٍ ونقصان عقلٍ، وهو لضعف النفس ونقصانها وآية أنّه لضعف النفس، أنّ المريض أسرع غضباً من الصحيح، والمرأة أسرع غضباً من الرجل، والصبيّ أسرع غضباً من الرجل الكبير، والشيخ الضعيف أسرع غضباً من الكهل، وذو الخُلق السيّئ والرذائل القبيحة أسرع غضباً من صاحب الفضائل، فالرذيل يغضب لشهوته إذا فاتته اللّقمة، ولبخله إذا فاتته الحبّة حتى أنه يغضب على أهله وولده»(*)..

وقد ينطلق الغضب من الحالات الحادّة التي تواجه الإنسان بما يكره، كالاعتداء على شيء يقدّسه أو يحبّه أو حرمانه من بعض الحاجات الشخصيّة، أو تعرّضه لبعض المواقف المحرجة، وغير ذلك من الحالات التي يفقد فيها الإنسان انسجامه مع الواقع الذي يواجهه، أو يحيط به، فيتحوّل إلى حالة انفعال حادةٍ تشبه الهياج الجنوني الذي يفقد الإنسان فيه عقله نتيجة فقدانه لتوازنه.

ولعلّ أقرب التحليلات للغضب في مثل هذه الحالات، هو اندفاع الإنسان للخروج من المشكلة التي تواجهه، أو الموقف الذي يكرهه، بطريقة سريعة، يختصر فيها الوسائل العملية للوصول إلى النتيجة بشكل لا شعوري، أو محاولة التعويض عن الشعور العميق بالفشل والعجز عن الوصول إلى حلّ، فيلجأ إلى الغضب كأسلوب من أساليب تأكيد الذات.

(*) إحياء علوم الدين ج٣ ص١٧٢.

كيف يمكن السيطرة على الغضب

هناك طريقتان للسيطرة على الغضب.

الأولى: أسلوب السيطرة على دوافعه وأسبابه، وذلك بأن نحصر مؤثّرات الغضب في مجالات معيّنة محدودة وذلك بإزالة الكثير من المؤثّرات التي تدفع إلى ذلك.

وهذا ما نسمّيه بعملية «التبريد من الداخل».

فإذا عرفنا أنّ الغضب ينشأ ـ في كثير من حالاته ـ عن الكِبْر والتجبّر واحتقار الناس ـ كما جاء في الحديث المتقدّم ـ أمكننا أن نبدأ في التخطيط لإزالة هذه الصفات من شخصيّة الإنسان، ليتحوّل إلى إنسان متواضع هادئ، يحترم مَنْ حوله، ولا يشعر بأنّ له أيّ حقّ عندهم، إلا بمقدار ما يقدّم إليهم من خدمات، كما يتحسّس ظروفهم وأوضاعهم الصعبة التي تدفعهم إلى ممارسة بعض الأخطاء في علاقتهم به وبالآخرين.. فيحاول من خلال هذه الروح إيجاد المبرّرات والأعذار لهم في ذلك، ممّا يجعله يتقبّل كلّ الأوضاع الشاذّة بروحيّة هادئة غير منفعلة.

ومن الطبيعي، أنّ ذلك يحتاج إلى جهد كبير ومعاناة شاقّة، يشترك فيه التوجيه الفكريّ والروحيّ مع التدريب العملي والإرادة القويّة، وهذا هو الذي يسعى إليه الإسلام في بناء شخصيّة الإنسان المسلم في الأحاديث المأثورة عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) التي تصوّر لنا المَثَل الحيّ للإنسان المؤمن في الحياة.

فقد ورد عن الإمام جعفر الصادق (ع) قال: «**ينبغي للمؤمن أن يكون فيه ثماني خصال: وقور عند الهزاهز، صبور عند البلاء شكور عند الرخاء، قانع بما رزقه الله، لا يظلم الأعداء، ولا يتحامل للأصدقاء، بدنه منه في تعب، والناس منه في**

راحة، إنّ العلم خليل المؤمن، والحلم وزيره، والعقل أمير جنوده، والرّفق أخوه، والبِر والده»(*).

فقد رأينا ـ في هذا الحديث ـ الملامح البارزة للشخصيّة الإسلامية التي يريد الإسلام للمؤمن أن يجسّدها في نفسه، من خلال المعاناة الطويلة المجهِدة التي تجعله يعيش في حالة طوارئ داخلية من أجل أن يحصل على النفس القويّة المتماسكة التي لا تنهار أمام عوامل الانفعال في ذاتها، أو مع الآخرين.

وقد كثرت النصوص الدينيّة التي تصوّر للإنسان مساوئ الكِبْر ونتائجه السيّئة في حياة الفرد والمجتمع. ثم تقارن بين هذه الصورة وبين صورة التواضع ونتائجه الحسنة في حياة الناس.. ثم تنطلق، في محاولة ثانية، لتطلب من الإنسان القيام بعملية تدريب طويلة، بأساليب عديدة، للوصول إلى الحالة التي يصبح فيها التواضع خُلُقاً طبيعياً للإنسان يتعلّم فيه الإنسان كيف يحترم مَنْ حوله من خلال ظروفهم وأوضاعهم الخاصّة والعامة.

وقد نجد ـ الإيحاء بهذا الأسلوب ـ في الأحاديث الكثيرة الداعية إلى الحِلْم، والمرغّبة فيه، ببيان النتائج الكبيرة التي يحصل الإنسان عليها في الدنيا والآخرة من خلال الاتصاف به.

والحِلْم: «هو طمأنينة النفس بحيث لا يحرّكها الغضب بسهولة، ولا يزعجها المكروه بسرعة، فهو الضدّ الحقيقي للغضب، لأنّه المانع من حدوثه، وبُعد هيجانه»(**).

وقد يتمثّل في الحالة النفسيّة الهادئة التي تواجه عوامل الغضب بهدوء، وقد

(*) وسائل الشيعة ج٦ ص١٤٣.

(**) النراقي: جامع السعادات ج١ ص٢٩٥.

يتمثّل في الممارسة العملية الهادئة التي يواجه بها الإنسان حالات الغضب بعد هيجانه وثورانه.

وقد دعا الإسلام إلى كلتا الحالتين، في أكثر من حديث، وطلب من الإنسان أن يدرّب نفسه على تكلّف الحِلْم، إذا لم يكن الحِلْم خُلُقاً طبيعياً له، ليتحوّل بالتدريب إلى إنسان حليم.

ففي نهج البلاغة: «**إذا لم تكن حليماً فتحلَّم فإنه قلّ أن تشبّه أحدٌ بقوم إلا وأوشك أن يكون منهم**».

وفي حديث النبيّ (ص): «**أنّ الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم**».

وفي حديث آخر عنه (ص) ينفي فيه اعتبار الحلم ذلاً «**ما أذلّ الله بحلم قطّ**».

وقال: علي بن الحسين (ع): «**إنّه ليعجبني الرجل أن يدركه حلمه عند غضبه**».

وفي نهج البلاغة: «**أوّل عوض الحليم عن حلمه، أنّ الناس أنصاره على الجاهل**».

ولعلّ من أقرب الأساليب الموصلة إلى هذا الهدف ـ أعني تبريد النفس من الداخل ـ هو تعويد الإنسان نفسه على أن يفكّر في كلّ قضية تُعرض عليه، وفي كلّ مشكلة تواجهه، ويتدبّر جذورها ونتائجها، ليستطيع الوقوف بهدوء ووعي عميق، لأنّ أغلب دوافع الغضب، تتمثّل في فهم الموقف في وجه واحد بشكل سريع. فقد جاء في حديث السيرة النبوية، أنّ رجلاً جاء إلى النبيّ فقال أوصني يا رسول الله، فقال له النبي: «**فهل أنت مستوصٍ إذا أنا أوصيتك**» قال: بلى يا رسول الله، ويكرّر النبي السؤال ثلاث مرات، ويجيب الرجل بالإيجاب، فيقول له النبي (ص) في نهاية المطاف: «**إذا أنتَ هممت بأمر فتدبّر عاقبته، فإن يك رشيداً فأمضه، وإن يك غياً فانتهِ عنه**».

الثانية: أسلوب السيطرة على نوازعه ونتائجه، فنحن نعلم أنّ الغضب الذي يحدث في الداخل، يحاول أن يعبّر عن نفسه في الخارج بأساليب متعدّدة، تختلف حسب اختلاف ذهنيّة الشخص وثقافته وبيئته، فقد يكون أسلوب التعبير عملاً يدويّاً، كالضرب والقتل، وما إلى ذلك، وقد يكون عملاً آخر كالسبّ والشتم والفحش بالقول أو تحطيم ما حوله من أثاث وغيره، وقد يتحوّل إلى خطّة عملية تعتمد على أسلوب اللّف والدوران الذي ينتهي إلى الإيقاع بالمعتدي بطريقة لبقة.

وقد توفّرت النصوص الدينيّة الكثيرة، على الحديث عن الغضب من خلال نتائجه السيّئة، ففي حديث الإمام عليّ بن موسى الرضا (ع): «**إنّ كُفْرَ أحدكم في غضبه ولا خير فيمن كان كفره في غضبه**»(*)، وفي حديث الإمام جعفر الصادق(ع): «**كان أبي يقول: أيُّ شيءٍ أشدّ من الغضب؟. إنّ الرجل ليغضب فيقتل النفس التي حرّم الله ويقذف المُحصَنة**». وفي حديث الإمام محمد الباقر(ع): «**إنّ الرجل ليغضب فما يرضى أبداً حتى يدخل النار**».

وقد عالجت بعض الأحاديث، الأساليب التي يُمسك الإنسان فيها نفسه عن التصرّف في حالات الغضب، ففي بعض الأحاديث تذكير للغاضب، بغضب الله عليه بسبب معاصيه، كما يغضب، بسبب إساءة الآخرين إليه، ووعده بأنَّ كفّ الغضب عن الناس يؤدّي بالنتيجة إلى كفّ الله غضبه عنه.

ولا بدّ للمؤمن الذي يرجو رضا الله عنه ويخاف من سخطه عليه، أن يعمل للحصول على هذه النتيجة الطيّبة لكفّ غضبه عن الآخرين، كلّما عرضت له عوامل الغضب، ودعته إلى أن يتصرّف بسوء.

ففي الحديث عن النبي (ص): «**مَن كفّ غضبه عن الناس كفّ الله عنه عذاب يوم القيامة**».

(*) وسائل الشيعة ج٦/ ص ٢١٤.

وفي الحديث عن الإمام محمد الباقر (ع): «**مكتوب في التوراة: فيما ناجى الله به موسى: أمسك غضبك عمّن ملّكتك عليه أكفّ عنك غضبي**».

وفي الحديث عن الإمام جعفر الصادق (ع): «**أوحى الله إلى بعض أنبيائه «يا بن آدم اذكرني في غضبك أذكرك في غضبي**»، وربما نستفيد من هذا الحديث معنى آخر، وهو أنّ على الإنسان أن يذكر الله عند غضبه، ليمنعه شعوره برقابة الله عليه واطّلاعه على ما يعمل، من أن يتصرّف تصرّفاً في غير رضا الله... فيهدأ ويطمئنّ بعد ذلك، لأنّ التفكير في العواقب، والخشية من الله، يدفعان الإنسان إلى فهم الموقف فهماً عميقاً لا يسمح الوقوع في الخطأ في أغلب الحالات.

وقد أشارت بعض النصوص إلى الطرق التي تشغل الإنسان عن الاندفاع بعيداً في غضبه، وذلك كالاستعاذة من الشيطان والجلوس إن كان قائماً، والاضطجاع إن كان جالساً، والوضوء أو الغسل بالماء البارد، ومسّ ذي الرحم إن كان غضبه على ذي رحم «**فإنّ الرحم إذا مُسّت كَنّت**».

ولعلّ قيمة هذه الأفعال، أنّها تُخرج الإنسان من جوّ الغضب، إلى جوّ جديد يرجع فيه الإنسان إلى نفسه، ليبدأ تفكيراً جديداً في الموقف، يبدّل فيه مشاعره ونوازعه.

كظم الغيظ

وقد أكثرت النصوص الدينيّة، من الآيات القرآنية، والأحاديث الشريفة، من التحدّث عن كظم الإنسان غيظه، واعتبرته من الصفات الكبيرة التي ترفع من مكانة الإنسان، ومنزلته عند الله وعند الناس، فقد قال الله تعالى، في معرض الحديث عن صفات المتّقين الذين وعدهم الله بالجنّة والمغفرة والرضوان:

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]

ويُلاحظ في هذه الآية الشريفة، أنّها لم تكتفِ بأن يكبت الإنسان غيظه، بل أرادت أن يعيش الإنسان روح العفو عن الناس، لئلا يتحوّل الغيظ المكبوت في نفسه إلى عقدةٍ، ثمّ طلبت منه أن يتبع ذلك بالإحسان ليزول عنه كلّ أثر.

وفي الحديث عن النبي (ص): «**مَنْ كظم غيظاً** ـ ولو شاء أن يمضيه لأمضاه ـ **ملأ الله قلبه يوم القيامة رضىً**».

وفي حديث آخر عنه (ص): «**مِن أحبِّ السبل إلى الله جرعتان: جرعة غيظ يردّها بحلم، وجرعة مصيبة يردّها بصبر**».

وفي الحديث عن الإمام الصادق (ع): «**ما مِن عبد كظم غيظاً إلا زاده الله عزّاً في الدنيا والآخرة**».

وتهدف هذه النصوص إلى تربية الإنسان على هذا السلوك من خلال الثواب الكبير عليه ليمارسه الإنسان على أساس الحصول على الثواب في البداية، ويتعوّد عليه من خلال ذلك حتى يتحوّل إلى طبيعة جديدة ينطلق فيها بشكل عفويّ دون التفات إلى شيء، تماماً، كالصفات الطبيعية المودعة في ذاته.

الأدب حالة الغضب

وفي الحديث المأثور عن النبيّ (ص) أنّه نهى عن الأدب وقت الغضب.

ولعلّ السرّ في ذلك، أنّ التربية تستهدف تقويم اعوجاج المنحرف، وتصحيح خطأ المخطئ، وتقوية نقاط الضعف، ولا بدّ للإنسان الذي يمارسها ـ من خلال هذه الأهداف ـ أن يكون واعياً لدوره، مالكاً لأعصابه، حتى يستطيع معرفة ماذا يجب عليه أن يفعل، وماذا يجب أن يترك، لأنّ للتربية ميزاناً دقيقاً لا بدّ من رعايته، فربّما يكون الرفق هو سبيل التأديب في بعض الحالات، فإذا لجأ الإنسان إلى العنف انقلب الموقف إلى ضدّه.

وهناك من الناس، مَنْ تُصلحه الكلمة، لا يجوز ممارسة الضرب معه، لأن ذلك يخلق عنده عقدةً مضادّةً، وهناك قسم آخر، يُصلحه الضرب فلا يمكن للكلمات أن تؤذيه، وتؤثّر فيه شيئاً.

وعلى ضوء ذلك، لا يمكن للتربية أن تؤدّي رسالتها في حالات الغضب، لأنّ التصرّف قد ينطلق من الحالات النفسيّة الغاضبة، فيتحوّل الموقف إلى عملية تفجير للعقد النفسيّة المكبوتة إزاء المواقف السابقة البعيدة عن حالات الأدب والتربية،كما نشاهده كثيراً في موقف بعض الآباء والمعلّمين الذين يأتون إلى البيت، أو الصّف، وهم يعانون أزمةً نفسيّة حادّة بسبب خلافٍ، مع بعض الناس، أو فشلٍ في بعض المواقف.. وتكون الصدفة أن يخطئ التلميذ أو الولد خطأً ليس بذي بالٍ، فيتجمّع الغيظ في صدر الأب أو المعلّم، ويتفجّر حُمماً في وجه الولد أو الطالب المسكين دون أن يكون قد فعل شيئاً يوجب ذلك لولا الأزمة النفسيّة التي يعانيها المؤدِّب.

الغضب العقلاني

وهناك نوع من الغضب، تحدّثت عنه النصوص الدينيّة بكثير من التقدير وهو الغضب لله. ويعبّر عن الحالة النفسيّة التي يعيشها الإنسان إزاء التعدّي على بعض حرمات الله، والتي تدفعه إلى التصرّف الثائر لأجل حفظ هذه الحرمات، فقد ورد في نهج البلاغة: «**مَنْ أحدَّ سنان الغضب لله قَوِيَ على قتل أشدّاء الباطل**».

فقد اعتُبر الغضب لله، من إحدى الوسائل العملية التي تعطي الإنسان قوّة مضاعفة على مواجهة أنصار الباطل وجنوده الأشدّاء، بما يعطيه الغضب من حيوية واندفاع للموقف.

وقد تحدّث القرآن الكريم عن موسى (ع) أنّه غضب واشتدّ به الغضب عندما

قَدِم من مناجاته لربّه، ليرى قومه وقد اتخذوا العِجل، فكان غضبه محاولة منه للسيطرة على الموقف من جديد، لا مجرّد انفعال عفويّ يصدر منه دون إرادة.

﴿بَلِ اللّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ*سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾[آل عمران: ١٥٠ ـ ١٥١].

ويحلو لنا أن نسمّي هذا الغضب «الغضب العقلاني» لأنّه ينطلق من خطّة واعية تعتبر الغضب أسلوباً من أساليب تنفيذ الخطّة.

ومن مظاهر هذا الغضب، أن نجد له هدفاً معيّناً يقف عنده، لا يتجاوزه لغيره، كما أنّه لا يتعدّى الحدود المرسومة له شرعاً في وسائل ممارسته، وفي طريقة التعبير عنه.

وربّما نجده في بعض الأساليب التي تتّبعها التيارات الاجتماعيّة والسياسيّة والدينيّة، في إثارة موقف معيّن حادّ ضدّ الفئات الأخرى على أن لا يتجاوز حدّاً معيناً تقتضيه الخطّة المرسومة.

ولعلّ قيمته تكمن في أنّه يدلّل على عظمة الله في نفس الغاضب، الأمر الذي يجعله ينفعل في حالة الاعتداء على مقدّساته وحُرُمَاته، انفعالاً يتّجه لردّ الاعتداء بالأسلوب الذي يرضي الله ولا يتعدّى حدوده.

الغضب في نهاية المطاف

وهكذا نعرف أنّ الإسلام لا يريد للغضب أن يتحرّك، كما تتحرّك الرياح المجنونة التي تنطلق لتحطّم كلّ شيء أمامها، بل يريد له أن يتحرّك، في عقلانية واعية يحقّق الإنسان من خلاله هدفاً معيّناً خطّط له في البداية ليكون الغضب جزءاً من خطّة، ومرحلةً في طريق الهدف.

... حتى إثارة الغضب لدى الآخرين لا يُراد منه ـ في حال ممارسته ـ إلا خَلْقُ حالة من الاندفاع القوي لديهم نحو العمل حيث يساهم ذلك في تفجير وعي العمل من الداخل.

وبهذا يدخل الأسلوب العقلاني في توجيه الغضب نحو الهدف الأمثل، توجيهاً يخدم الحياة ويثيرها في طريق الإيجابية، دون أن يترك أيّة نتائج سلبية في الطريق.

الإسلام أمام انفعالات الحزن

الحزن من الانفعالات التي تحدث للإنسان في حالات المصيبة، وفي حالات الفشل، وفي حالات الألم، ويختلف التعبير عنه، حسب اختلاف الشخص الحزين، في نفسه، وفي درجة الحزن.

فكيف واجه الإسلام هذا الانفعال؟

إنّه واجه الحزن في عدّة مواقف.

فهناك الحزن الذي يحصل للإنسان في حالة المصيبة.

وهناك الحزن الذي يحدث له في حالة الفشل في عمل أو دعوة.

وهناك الحزن الذي يغمره في حالات الخسارة.

الحزن في حالة المصيبة

أمّا الموقف الأوّل، فقد احترم الإسلام فيه حزن الإنسان، وأقرّه واعتبره علامةً من علامات الإنسانيّة التي إذا تجرّد الإنسان عنها، تحوّل إلى مخلوق يشبه الحجر في قسوته وجموده.

ثم اقترب الإسلام من وسائل التعبير عنه، فشجّع الوسائل الهادئة التي تعبّر عن الحزن بهدوء،دون أن تُفقد الإنسان تماسكه، وصموده أمام الصدمة.. فسمح للدموع أن تنساب بهدوء ورحمة، ولكنّه لم يسمح للإنسان أن يتكلّم بكلام غير مسؤول، ولم يسمح للوسائل العنيفة التي يدفع إليها طغيان الحزن إلى حدّ الجزع، كاللّطم وخدش الوجه ونتف الشَّعر، وما إلى ذلك من الوسائل التي تعبّر عن فقدان الإنسان لتوازنه، وانهيار شخصيّته القوية أمام المصيبة.

فقد ورد عن رسول الله (ص) أنّه وقف أمام جسد ولده الوحيد إبراهيم وقال:

«**تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول ما لا يرضي الربّ**».

فللقلب أن يحزن، لأنّ الحزن دليل العاطفة الإنسانيّة التي يعتبرها الإسلام حدّاً فاصلاً بين الإنسان وغيره.

وللعين أن تدمع، لأنّ للعاطفة الحقّ في التعبير عن نفسها لئلا تتعقّد في الداخل، ولكن ليس للعاطفة أن تطغى على إيمان الإنسان بالله، فتتكلّم كلاماً لا يرضي الله... حتى في الكلمات التي يعبّر بها الإنسان عن حزنه وعن مشاعره تجاه الميّت، يمنع الإسلامُ الانفعالَ أن يطغى فيمدحه بما ليس فيه، أو يتكلّم عنه كلاماً ليس في محلّه، تدريباً للإنسان على أن يلجم انفعاله عندما تنطلق المبادئ لتتكلّم وتسير.

وعلى ضوء هذا، يريد الإسلام للإنسان، حتّى وهو يعيش الإحساس الدامي بالمصيبة، أن يعيش التفكير بالحدود التي يجب أن تقف عندها العاطفة. ولهذا حارب الإسلام الجزع الذي يعبّر عن الحالة الوجدانية العنيفة الذي لا يملك الإنسان فيها قيادة نفسه في الداخل وفي الخارج، لأنه يحوّل الإنسان إلى شخص غير مسؤول، لا ينظر إلاّ إلى الزاوية العاطفية من القضيّة، فلا يلتفت إلى بقيّة الزوايا الأخرى التي تقف فيها شخصيّة الإنسان أمام تطلّعات المستقبل، وتتجلّى

معها طبيعة النظام الكوني الذي يحكم الأشياء.

وقد تحدّث الإمام عليّ (ع) في كلماته القصار في نهج البلاغة عن الصبر والجزع في عدّة أساليب.

ففي بعض كلماته: «**مَنْ لم يُنجِه الصبر أهلكه الجزع**».

وقال: «**الصبر يناضل الحدثان والجزع من أعوان الزمان**».

وفي الحديث الذي يرويه جابر عن الإمام محمد الباقر (ع) قلت له: «ما الجزع؟» قال: «**أشدّ الجزع الصراخ بالويل والعويل ولطم الوجه والصدر وجزّ الشعر من النواصي، ومن أقام النواحة فقد ترك الصبر وأخذ في غير طريقه**».

وفي الحديث عن النبيّ (ص): «**ضَرْبُ المسلم يده على فخذه عند المصيبة إحباطٌ لأجره**».

وهكذا يحاول الإسلام الإيحاء للإنسان بالتصرّف المسؤول عند المصيبة بالطريقة التي لا تُحبط أجره ولا تُخمد عاطفته، ولا تُفقده توازنه، الأمر الذي يجعل الإنسان واعياً لإيمانه حتّى في أشدّ المواقف حراجةً.

أسلوب الإسلام في التعزية بالميّت يؤكّد الفكرة

وقد نلاحظ في الكلمات المأثورة عن بعض الأئمّة (عليهم السلام) في تعزية أهل الميّت.. أنّ الفكرة لم تكن هي أن يخلق في أنفسهم روح العزاء فقط، بل كانت، هي، أن تثير في داخلهم التفكير العقلاني، بطبيعة الحالة التي هم عليها، لينطلق العزاء من حالة فكريّة، لا من حالة وجدانية خالصة.

ونلاحظ ذلك في أسلوب التعزية التي تحدّث بها الإمام علي (ع) مع بعض الناس:

«إنّ هذا الأمر ليس بكم بدأ، ولا إليكم انتهى، وقد كان صاحبكم يسافر فاحسبوه في سفر، فإن قَدِم عليكم وإلا قَدِمْتُم عليه».

ففي هذه الكلمات اتجاهٌ إلى ربط القضية بالسنَّة الكونية التي تشمل كلّ الناس في الماضي والحاضر والمستقبل ومحاولة لإثارة نور جديد للأمل من خلال الإيمان الحقّ باللقاء في الدار الآخرة، الأمر الذي يجعل العزاء مرتبطاً بالواقع من جهة باعتباره أمراً طبيعياً، وبالإنسان من جهة باعتباره مصدراً حقيقياً للأمل.

وعلى ضوء هذا نفسّر التوجيهات الدينيّة الكثيرة التي توجّه الإنسان نحو التكلّم ببعض الكلمات التي تبذر في النفس العزاء، وتخلق في داخلها روح الصبر، وذلك كما في قوله تعالى في القرآن الكريم:

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ * أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[البقرة: ١٥٦ ـ ١٥٧].

فإنّ هذه الكلمة تربط الإنسان بالواقع من خلال الإيمان، كما أوضحها الإمام أمير المؤمنين (ع) في نهج البلاغة، **«إنّا لله إقرارٌ بالمُلْك وإنّا إليه راجعون إقرار بالهُلْك»**.

ففي ذلك يعيش الإنسان روح التسليم بالواقع وعدم مفاجأته بأيّ حديث أو مشكلة، ليواجه الحياة بروح واقعية هادئة لا تهتزّ أمام الأحداث، ولا تنهار أمام المصائب.

الحزن في حالات الفشل

أمّا الموقف الثاني: هو الذي يحدث للإنسان في حالات الفشل، في عملٍ يحبّه، أو دعوة يؤمن بها، كما يحدث للأنبياء أو أصحاب الدعوات الكبيرة في الحياة، أو رجال المشاريع الإنسانيّة والاجتماعيّة، عندما ينطلقون للتبشير برسالاتهم أو القيام بمشاريعهم، بكلّ إخلاص واندفاع من أجل رفع مستوى شعوبهم، فإذا

بالعقبات تنتصب في الطريق لتكون جداراً ضخماً يَحُول بينهم وبين البلوغ إلى ما يريدون من أهداف، وإذا بالذين يعملون من أجل رفع مستواهم يقفون في الواجهة في موقف الأعداء، ليكونوا أوّل من يطعن الدعوة ويحاربها ويرمي دعاتها بأبشع النعوت وأفظع التُّهم، ويضطهدهم في حياتهم العامّة والخاصة.

وهنا يقف النبيّ أو المصلح، وقفة الحزن والأسى، وتتحوّل مشاعره إلى انفعالات حادّة، تجعله يضيق بدعوته في بعض الحالات، ويترك الساحة يأساً وهروباً، وربّما يقف وقفة الحزين الكئيب الذي تمتلئ أعماقه بالألم واللّوعة لينهار أمام ذلك من أجل نفسه، ومن أجل الآخرين.

وقد صوّر لنا القرآن الكريم هذه الحالات من خلال التوجيهات الإلهية التي كانت تلاحق النبي (ص) في مسيرة الدعوة، وترصد خطواته، لتسدّده في كلّ ما يقول وفي كل ما يفعل، أو يشعر به من مشاعر أو يتعرّض له من انفعالات.

ففي بعض الآيات صورة لحالة الضيق النفسيّ الذي يشعر به الإنسان أمام حالة التمرّد، ويدعوه إلى أن ينسحب من معركة في يأس ولوعة.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[هود: ١٢].

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾[الحجر: ٩٧ ـ ٩٨].

فهذا موقف يتعرّض فيه النبي (ص) إلى الاقتراحات التعجيزية التي كان يمارسها الكفار ضدّ النبي ويحاولون أن يُشغلوه بها عن مهمّته، ليتحوّل إلى شخص لا شغل له إلا الاستجابة لتمنياتهم وتحدّياتهم التي لا معنى لها، لأنّها لا تصدر عن محاولة للاقتناع، ففي معاجزه التي قدّمها لهم كلّ كفاية، بل تصدر عن رغبة في التحدّي لمجرّد التحدّي.

ومن الطبيعي أنّ مثل هذا الأسلوب في المعاندة لا يُجدي فيه أيّ أسلوب سلبيّ أو إيجابيّ مقنع، لأنّهم لا يريدون ذلك، كما قدّمنا، ولهذا كانوا يتحوّلون من عَرْضٍ إلى عرض، ومن اقتراحٍ إلى اقتراح.

وذلك كان يضيق صدر النبي ـ أو هكذا يحاول القرآن أن يُوحي من وجهة تربوية ـ إلى المستوى الذي قد يبلغ في قوّته درجة الرغبة في الانسحاب في بعض هذه المواقف المزعجة.

فجاء القرآن الكريم ليقول له:

لِمَ يضيق صدرك بكلامهم وتحدّياتهم؟

إنّك قد قمت بمهمتك، وهي الإنذار والإبلاغ بكلّ ما تملك من طاقة، فَلِمَ تدّخر جهداً في ذلك، ولم توفّر أيّ وسيلة.

وإذا قام الإنسان بما يجب عليه في نطاق قدرته، فليرجف المرجفون، وليقل المتقوّلون، فلا قيمة لذلك كلّه في حساب الله وفي حساب الناس.

وفي بعض الآيات تصوير لحالة الحزن التي يواجهها النبيّ (ص) أمام حالات الكفر، تارةً، من جهة تكذيبهم له، وأخرى من جهة موقفهم من الله وتحدّيهم لإرادته وكلماته، وثالثة، من جهة حزنه عليهم لأنّهم لم يهتدوا للإيمان.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ﴾[الأنعام: ٣٣].

﴿وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[آل عمران: ١٧٦].

﴿فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[المائدة: ٦٨].

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾[الكهف: ٦].

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[فاطر:٨].

إنّ هذه الآيات بأجمعها، تطلب من النبيّ أن لا يستسلم لانفعال الحزن أمام هذه الحالات، لأنّه إذا كان يحزن لأجل الله، بسبب تحدّيهم له وتمرّدهم عليه، فإنّهم لن يضرّوا الله شيئاً. أمّا إذا كان الحزن، من أجل تكذيبهم له، فليس التكذيب موجّهاً له بل هو موجّه لله، لأنّه يحمل رسالة الله، كما أنّ القضيّة ليست بدعاً في مجال النبوّات، فلطالما كُذِّب الأنبياء السابقون من قبل أقوامهم.. وإذا كان الألم من أجل المكذّبين أنفسهم لأنّهم لم يؤمنوا، فإنّهم لا يستحقون الألم، ما داموا قد اختاروا طريق الهلاك في الدّنيا والآخرة.

وهكذا تتنوّع الآيات في تحليل كلّ حالة من الحالات لتُرجع الموقف إلى جذوره الأساسية التي انطلق منها، فلا يعود للانفعال أيّ مبرر، أو أيّ معنى.

ليس الموقف موقف تسلية أو تعزية

ويطيب لنا أن نؤكّد على نقطةٍ مهمّة في هذا المجال وهي: أنّ الآيات التي تطلب من النبي (ص) عدم الحزن على حالات الجحود من المشركين، لا تستهدف تسليته وتعزيته ـ كما يُخيّل لبعض المفسّرين ـ بل كانت تستهدف تفريغ نفسه من الانفعال العنيف الذي ينطلق من الشعور بالخيبة أمام العمل.

وذلك بإثارة حقيقةٍ واقعيةٍ تفرض نفسها على الموقف، وهي: أنّ قضية النجاح والفشل لا تنطلق من عنصر واحد يتمثّل في جهد العامل ونشاطه، بل تنطلق منه، ومن عناصر عديدة تشترك فيها الظروف الموضوعية المحيطة بالعمل بما في ذلك مؤثّرات البيئة وغيرها، ولذا فلا بدّ للعامل من أن يُدخل ذلك في حسابه عندما يبدأ العمل، ولعلّ من بين الأسس التي يرتكز عليها الموقف هو انطلاق الإنسان من نقطة أساسية، وهي المجالات التي يستطيع أن يتحرّك فيها من خلال

قدرته ونطاقه، فهي التي ينبغي أن تثير اهتمامه وانفعاله.. أمّا المجالات التي لا تخضع لإرادته وقدرته، فعليه أن لا يخضع لأيّ انفعال أمامها لأنّها لا تمثّل إلا جهداً ضائعاً في هذا المجال.

الحزن في حالات الخسارة

أما الموقف الثالث، وهو حالة الخسارة، فالإسلام يقف من الانفعال موقفاً فلسفياً رائعاً ينطلق من واقع الحياة الذي يخضع للقوانين الطبيعية التي تتحكّم في مسيرتها ونظامها، الأمر الذي يجعل الخَسارة أمراً وارداً وطبيعياً في نطاق الظروف الموضوعية العامة والخاصة، كما يجعل الربح أمراً طبيعياً في هذا المجال، ولذا فلا داعي للانفعال أمام كِلتا الحالتين، لأنّ الانفعال ينطلق من فعل وضع غير طبيعي يحدث للإنسان، ومن حالات غير منتظرة. أمّا الحالات الطبيعية المنتظرة، فهي لا تحدث للنفس إلا إحساساً هادئاً بالموقف ينسجم مع الجوّ الملائم بكلّ هدوء واطمئنان.

وذلك هو قوله تعالى:

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[الحديد: ٢٢ ـ ٢٣].

وتلك هي مهمّة الإيمان بالقضاء والقدر الذي يعبّر عن خضوع الأوضاع الحياتية لقوانين محدّدة تجعل لكلّ ظاهرة أو حادثة ظروفها الموضوعية التي تتحرّك في إطارها، وتتحدّد النتائج من خلالها.

وهذا هو ما يفسّر حالات الرضا والاطمئنان التي يقابل بها المؤمنون الطيّبون مصائب الحياة وخسائرها بنفس هادئة ومطمئنّة، لإحساسهم بأنّ ما أدركهم لم

يكن ليفوتهم، وما فاتهم لم يكن ليدركهم، فلماذا الحزن هنا؟ ولماذا الفرح هناك؟ ما دامت القضية جاريةً على السّنن الطبيعية الحكيمة الخاضعة لإرادة قادر حكيم رحيم.

ونلاحظ ـ ونحن نتابع موقف الإسلام من السلوك الانفعالي ـ بعض النصوص الدينيّة التي تجعل من السلوك العقلاني في حالة الانفعال، مقياس شخصيّة المؤمن، ودليل إيمانه.

فقد ورد حديث مستفيض عن النبي (ص).

«ثلاث خصال من كنّ فيه فقد استكمل خصال الإيمان، إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق، وإذا قدر لم يتعاطَ ما ليس له».

فإنّنا نجد ـ في هذا الحديث ـ ثلاث حالات تمرّ بالإنسان، هي حالة الرضا عن الآخرين، وعن بعض المواقف، وحالة السّخط والغضب عليهم، وحالة القدرة والسلطة، فإنّ هذه الحالات تثير في نفس الإنسان انفعالات مختلفة حسب اختلاف حالة كلّ منهم، فالرضا والحبّ قد يتعاظم في نفس الإنسان إلى المستوى الذي لا يقبل فيه المحبّ أيّ اتّهام أو نقدٍ لمن يحبّ، ويحاول في الوقت نفسه إضفاء أفضل الصفات والنعوت عليه بدون حساب أو استحقاق.. وفي مقابل ذلك، نجد السّخط والكره والعداوة، فقد تبلغ الحدث الذي لا يرضى الإنسان معه بأن يذكر خصمه بأيّة صفة خير، أو يتصرّف معه بأيّ تصرّف يشتمل على الإنصاف.

أمّا السلطة أو القدرة، فإنّها تخلق في داخل الشخص شعوراً بالطغيان الذي يجعله يمارس قدرته فيما ليس له بحقّ، فيطلب ما لا حقّ له فيه، ويمنع غيره ممّا له فيه حقّ.

وقد اهتمّ الإسلام بتربية الإنسان على الشعور الدائم بالارتباط بالحقّ حتّى في أشدّ الحالات حرجاً، فكانت الآيات الكريمة التي تتحدّث عن الشهادة بالحقّ، وعن كلمات المدح والذم، وعن الحكم مع الأعداء والأصدقاء:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾[النساء: ١٣٥].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المائدة: ٨].

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾[الأنعام: ١٥٢].

فنحن نلاحظ التركيز في الآيات الثلاث، على الانطلاق بعيداً عن العاطفة التي تنحرف بالإنسان عن خطّ العدل، نتيجة علاقة قرابة أو صداقة أو عداوةٍ، فللقرابة أو الصداقة دورها الذي يتمثّل بالتعاطف مع الأرحام في شؤون الحياة العائلية والاجتماعيّة، ولكنّه إذا اقترب من الحدّ الفاصل بين الحقّ والباطل، والظلم والعدل، فعليه أن يقف عند حدّه، فلا يتجاوز الحقّ إلى الباطل أو الظلم إلى العدل.

وللعداوة مظاهرها المتمثلة في المقاطعة ونحوها، ولكنْ على أن لا تكون سبباً للحكم بالباطل عليه، أو منع الحقّ له فيما إذا كان له الحقّ.

وقد ركز الحديث النبوي المتقدّم على هذه النقطة، فاعتبر الوقوف مع الحقّ في حالات الرضا والغضب، والقدرة والضعف علامة للإيمان الحقّ، لأن ذلك يدلّ على وجود القاعدة الإيمانية التي تحرّك الإنسان في اتجاه الحقّ دون أن

تضغط عليه النوازع النفسيّة والمواقف العاطفية.

ونلمح التركيز على هذا في دعاء الإمام زين العابدين عليّ بن الحسين (عليهما السلام) في الصحيفة السجادية:

«اللّهم.. وارزقني التحفّظ من الخطايا، والاحتراس من الزلل في حال الرضا والغضب حتى أكون بما يرد عليَّ منهما بمنزلة سواءٍ، عاملاً بطاعتك، مُؤْثِراً لرضاك على ما سواهما في الأولياء والأعداء حتّى يأمن عدوي من ظلمي وجوري ويأس وليّي من ميلي وانحطاط هواي».

وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض الحالات الانفعالية التي يعيشها الفرد إزاء حالات العطاء والمنع فيتعرّض لانفعالات متعاكسة، فالعطاء يثير في نفسه انفعال المحبّة الطاغية للمعطي حتى ليدفعه ذلك، إلى أن يمنحه كلّ الصفات الكبيرة دون استحقاق، بينما يثير المنع في داخله انفعال السُّخط والبغض حتى ليراه جديراً بكلّ صفة قبيحة توجب القدح والذم.

قال الله تعالى:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[التوبة: ٥٨].

وقد عبّر الإمام زين العابدين عن هذه الحالة، وعن هذا الموقف في دعاء مكارم الأخلاق في الصحيفة السجادية.

«اللّهم وصُن وجهي باليسار، ولا تبتذل جاهي بالإقتار، فأسترزق أهل رزقك، وأستعطي شرار خلقك فأُبتلى بحمد من أعطاني وذمّ من منعني، وأنت من دونهم وليّ الإعطاء والمنع».

السلوك العقلاني في ردّ الاعتداء

وهنك حالات يتعرّض فيها الإنسان للاعتداء على حياته أو على كرامته، أو على أحد أقربائه، فتمتلئ نفسه بروح الانفعال الذي يشعر معه بالحاجة إلى تدمير المعتدي، فيردّ الكيل كيلين، والصاع صاعين، لأنّه يرى ـ في غمرة الانفعال ـ أنّ الكرامة الجريحة لا ترجع إلا بذلك، أو يشعر بأنّ الثأر لن يُنال إلا بقتل القاتل وكلّ اقربائِه، أو أفضل قرابته، لأنّ القتيل لا يعادله أحد في المكانة والمركز.. وهكذا ربّما تتحوّل الانفعالات الحادّة التي يثيرها الانفعال، إلى كارثة تدمّر المجتمع وتهدر سلامة الأبرياء الذين لا حول لهم ولا قوة فيه.

لهذا جاءت التعاليم الإسلامية، لتضع حدّاً معيّناً لا يتعدّاه في أخذ حقّه، وهو ردّ الاعتداء بمثله دون زيادة قليلة أو كثيرة.

﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[البقرة: ١٩٤].

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾[النحل: ١٢٦].

﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[الشورى: ٤٠].

﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[الأنعام: ١٦٤].

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾[الإسراء: ٣٣].

فقد أكّدت هذه الآيات على مبدأ المماثلة التي تدفع الإنسان إلى ضبط انفعالاته التي تدعوه للزيادة والطّغيان ثم حاولت أن تثير ـ في نفسه ـ نوازع العفو والتسامح والصبر، لتبرّد له انفعالاته نهائياً.

ومن الطبيعي، أنّ ذلك يستدعي منه تفكيراً طويلاً يحدّد الإنسان فيه موقفه على أساس الخطّ الذي أراده الله.

ونلاحظ في الآية الأخيرة التركيز على أن لا يتعدّى القصاصُ القاتلَ، وإلا كان ذلك إسرافاً في القتل، يرفضه الله، وينكره الشرع.

الإمام علي (ع) يطبّق الحكم على نفسه

وقد تجسّدت الناحية التطبيقية في موقف الإمام علي(ع) من قاتله في حادثة مصرعه، على يد عبد الرحمن بن ملجم فقد التفت إلى قومه قائلاً:

«يا بني عبد المطلب: لا ألفينّكم تخوضون دماء المسلمين خوضاً، تقولون: قُتل أمير المؤمنين، ألا لا يقتلنّ بي إلاّ قاتلي».

«... انظروا إذا أنا متُّ من ضربتي هذه، فاضربوه ضربةً بضربة، فإنّي سمعت رسول الله (ص) يقول: إيّاكم والمُثلة ولو بالكلب العقور».

إنّه موقف الإنسان المسلم الذي عاش الإسلام في روحه وفي ضميره وفي مشاعِره وعواطفه حتى عادت انفعالاته صورة حيّة لإسلامه، إنّه هنا يفكّر في آخر لحظات حياته بكلّ هدوء ورويّة ومسؤوليّة في تطبيق حكم الله في قضيّته بالذات فهو لا يعيش انفعالات الحقد والعداوة والبغضاء والتدمير، إزاء الإنسان الذي قضى على حياته التي هي مُلْك الإسلام بكلّ ما يملك من إمكانيات.

بل يعيش التفكير في أفضل السبل لضبط حركات أهله وأولاده، لئلا يطغى بهم الحزن إلى الحدّ الذي يتجاوزون به حكم الله، عندما يفكّرون في القضية من زاوية خطرة، إنّ علياً لا يعادله أحد في مركزه وقداسته، وإذا كان الأمر بهذا الشكل، فلا بدّ من الثأر على هذا المستوى، أن لا نُبقي أحداً ولا نذر من كلّ مَنْ يمتُّ إلى القاتل بِصِلة القرابة أو الفكر.

إنّ صوت الإسلام النقي الهادئ المنطلق من قلب عليّ المسلم الأكمل يرفض هذا المنطق بقوّة.

«**ألا لا يُقتلنّ بي إلا قاتلي**».

وإذا كانت الضربة واحدة، فلتكن ضربة القصاص مثلها، لأنّ التكرار يلغي المماثلة المطلوبة في الإسلام لا تمثيل ولا تنكيل.

لأنّ الموقف لا ينطلق من عقدة التشفّي والانتقام الذاتيَّين، بل يرتكز على قاعدة التطبيق لحكم الله.. وهكذا ضرب لنا الإمام علي (ع) مثلاً حيّاً في السيطرة على أقوى الانفعالات الذاتية التي يشعر بها الإنسان أمام قضية حياته.

قد يقول قائل: إنّ الموقف هنا موقف عليّ.

ومن لنا، بمن يبلغ هذا المستوى أو يقترب منه.. أيبلغ بنا الطموح أن نصل إلى مستوى علي؟

ونقول لهذا القائل: إنّ القضية ليست قضية عليّ الذات، بل القضية قضية عليّ المسلم الذي أراد إعطاء المسلمين القدوة من عمله، ليتّبعوه فيه، حتّى يشعروا أنّ حكم الله ليس مجرد فكرة تعيش في عالم المثال، بل هي حركة تتجسّد في عالم الواقع عقلاً وفكراً وروحاً وعملاً ينطلق من روح الله.

أمّا الاعتداء على الكرامة بسبٍّ أو نحوه، فالموقف هو الموقف.

إنّه ردّ الاعتداء بمثله ـ دون زيادة ـ أو العفو والتسامح.

الكلمة تقابَل بالكلمة ـ لا بالضرب.

والضربة الواحدة تقابَل بالضربة الواحدة، لا بضربتين ولا بالجرح.

والجراح لا تقابَل بالقتل، بل بالجراح، تحقيقاً لمبدأ المماثلة.

ولدينا ـ في هذا المجال ـ قصّتان تجسّدان التطبيق العملي للإسلام.

١ ـ قصّة النبي(ص) مع اليهودي

فقد جاء في الحديث الشريف عن الإمام أبي جعفر محمد الباقر (ع) قال:

«دخل يهودي على رسول الله (ص)، وعائشة عنده فقال: السَّامّ عليكم، فقال رسول الله (ص) وعليكم... ثم دخل آخر فقال: مثل ذلك فردّ عليه كما ردّ على صاحبه، ثم دخل آخر فقال مثل ذلك، فردّ رسول الله كما ردّ على صاحبيه. فقالت عائشة: عليكم السامّ والغضب واللّعنة، يا معشر اليهود، يا أخوة القردة والخنازير، فقال لها رسول الله (ص): «يا عائشة، إنّ الفحش لو كان ممثّلاً لكان مثال السوء، إنّ الرفق لم يُوضع على شيء إلا زانه، ولم يُرفع عن شيء إلا شانه.. قالت: يا رسول الله: أمَا سمعت إلى قولهم: السّامّ عليك. فقال: بلى. أما سمعتِ ما رددت عليهم قلت: وعليكم».

فنحن نلاحظ أنّ هؤلاء اليهود الثلاثة حاولوا إثارة النبي(ص) وتحدّيه بالدعاء عليه بالموت بأسلوب يوهم السامع الغافل، أنّهم يسلّمون عليه.

وفهم النبيّ(ص) القصّة، فردّ عليهم الدعاء بمثله، دون أن يزيد حرفاً، لأنّه لا يريد الدخول معهم في نزاع أوّلاً، ولينسجم مع التعاليم الإلهية التي بَشَّرَ بها ثانياً، وذلك بالاكتفاء بردّ الاعتداء بمثله.

ولمّا وقفت عائشة لتعبّر عن انفعالاتها العنيفة بالكلام العنيف، والأسلوب الفاحش، ووقف النبي بكل هدوء ليعرّفها: أنّه انتصر لنفسه أوّلاً، بهدوء، وليوجّهها إلى أنّ هذا الأسلوب الذي اتبعه هو الأسلوب الذي ينتصر في النهاية، إذا عرف الإنسان كيف يستعمله بحكمة، دون ضعف، كما هو الحال، في موقف النبيّ الذي انطلق من نقطة قوّة، لا نقطة ضعف لأنّه كان قادراً على أن يبادرهم بالشدّة والعنف بكلّ الأساليب الممكنة في هذا المجال.

٢ ـ قصة الإمام علي مع الخارجي

والقصّة الثانية: هي قصّة الإمام علي (ع) مع أحد الخوارج.

ففي نهج البلاغة: أنّ الإمام علياً (ع) كان جالساً ذات يوم مع أصحابه، فمرّت امرأة جميلة فرمقها القوم بأبصارهم فقال الإمام: «**إنّ هذه الفحول طوامح، وإنّ ذلك سبب هبابها، فمن وجد منكم في نفسه شيئاً فليلامس امرأته فإنّما هي امرأة كامرأته**».

فقال: أحد الخوارج ـ وهو يعبّر عن إعجابه بهذه الكلمة ـ قاتله الله كافراً ما أفقهه.

فوثب إليه القوم ليقتلوه.

فقال الإمام: «**رويداً إنّما هو سبّ بسبّ أو عفو عن ذنب**».

فقد تناول الإمام القصّة بكلّ بساطة، ووضعها في نطاقها الطبيعي من حكم الإسلام، فقد سبّ هذا الخارجي الإمام بتلك الكلمة.. والموقف الإسلامي هنا، أنّ الاعتداء يُقابَل بمثله، وهو السبّ أو العفو عن الذنب، أمّا القتل فهو غير وارد في هذا المجال مهما بلغت درجة الإساءة، ومهما كانت درجة المعتدي بإزاء درجة المعتدى عليه.

وهكذا نجد في هذا التطبيق العملي، المثال الحيّ الواضح، على أنّ الإنسان المؤمن، يستطيع إذا استحضر إيمانه في حالة انفعاله، ووعى حكم الله، وخاف من عقابه، أن يضغط على انفعاله، ليوجّهه في اتجاه العفو، أو في اتجاه حكم الله دون زيادة في قليل أو كثير.

خاتمة المطاف

والآن.. ما هي حصيلة الحديث كلّه؟

لقد رأينا كيف انطلق الإسلام من نقطة أساسيّة هي أن يربط الإنسان بالحياة من خلال الأسلوب العقلاني الذي ينظّم للإنسان طريقة تفكيره من جهة، وطريقة ممارسته لعواطفه وانفعالاته من جهة أخرى.. حتّى لا يبتعد الإنسان عن موقع الشعور الواعي بالمسؤوليّة في كلّ ما يعمل، وفي كلّ ما يقول.

وعرفنا أنَّ الإسلام لم يحاول إلغاء الانفعال من حياة الإنسان بل حاول أن ينظّمه ويهذّبه ويضبطه لكي يتحوّل إلى عنصر حيّ فاعل، يعطي الحياة طراوةً دون أن يُفقدها قوّة الموقف.

محتويات الكتاب

المقدّمة..... ٥

اليأس والأمل..... ٧

اليأس والأمل في مفهوم الإسلام ٩

اليأس في طريق الانتحار ٩

العاملون للحقّ أمام اليأس..... ١١

اليأس في المجال الوطني ١٣

اليأس بصورة عامة ١٤

اليأس موقف غير إسلامي ١٥

الأمل من خلال النظرة الواقعية للحياة ٢٠

النظريّة في إطار التطبيق..... ٢٣

خاتمة المطاف ٢٨

النقد.. والنقد الذاتي ٣١

النقد.. والنقد الذاتي..... ٣٣

ما هو النقد؟..... ٣٤

النقد في نطاق التشهير ٣٦

حماية الإسلام حياة الإنسان الذاتية ٣٧

مواجهة الإنسان بعيوبه ٣٩

النقد الغيابي أو الغيبة ٤٤
ما هي الغيبة ٤٦
الحالات الاستثنائية للتحريم ٤٩
النقد في نطاق تقييم الآخرين ٥٥
النقد أمام النماذج المزيّفة من الناس ٥٥
النقد أمام المظاهر الخادعة في الحياة ٥٧
الإمام زين العابدين يخطّط للنقد ٥٨
النقد الذاتي في الإسلام ٦١
موقف الإسلام من النقد الذاتي ٦٧
الانفعال ٧٥
موقف الإسلام من الانفعال ٧٧
تمهيد ٧٧
قيمة العقل في الإسلام ٧٨
القصّة في القرآن.. في طريق العقل ٨١
موقف قرآني بين الانفعالية والعقلانية ٨٢
الطريقة العقلانية تؤدّي إلى العمل ٨٤
رفض الإسلام للتقليد الفكريّ للآباء ٨٥
ولكن.. هل نرفض الانفعال من الأساس؟ ٨٧
الإسلام أمام نماذج متنوّعة من الانفعال ٨٨
الغضب في مفهوم الإسلام ٩٣
كيف يثور الغضب؟ ٩٥
كيف يمكن السيطرة على الغضب ٩٨
كظم الغيظ ١٠٢

الأدب حالة الغضب ١٠٣
الغضب العقلاني ١٠٤
الغضب في نهاية المطاف..... ١٠٥
الإسلام أمام انفعالات الحزن..... ١٠٦
الحزن في حالة المصيبة ١٠٦
أسلوب الإسلام في التعزية بالميّت يؤكّد الفكرة ١٠٨
الحزن في حالات الفشل ١٠٩
ليس الموقف موقف تسلية أو تعزية..... ١١٢
الحزن في حالات الخسارة..... ١١٣
السلوك العقلاني في ردّ الاعتداء..... ١١٧
الإمام علي (ع) يطبّق الحكم على نفسه..... ١١٨
١ ـ قصّة النبي(ص) مع اليهودي ١٢٠
٢ ـ قصة الإمام علي مع الخارجي..... ١٢١
خاتمة المطاف ١٢٢

هل نخاف من قوى البشر؟
إنّهم لا يملكون لنا ضرّاً إلا بالله.
هل نخاف من الفقر؟
إنّ الرزق بيد الله، فهو مقدّرٌ منه.
هل نخاف من المجهول؟
إنّ المجهول ليس قوةً مجنونةً تتحرّك دون وعي ولا نظام.
هل نخاف من الموت؟
إنّ الأعمار بيد الله، فهو الذي حدّدها ضمن النظام الكوني.
فلماذا نخاف من الحياة؟
ولماذا نخاف من الموت؟
إنّك في الحياة في رحمة الله، وبعد الموت في رحمة الله..
فأين يكون الخوف، وما معناه؟

المرجع السيّد محمد حسين فضل الله رضوان الله عليه

المركز الإسلامي الثقافي
مجمع الإمامين الحسنين(ع)

لبنان ـ حارة حريك